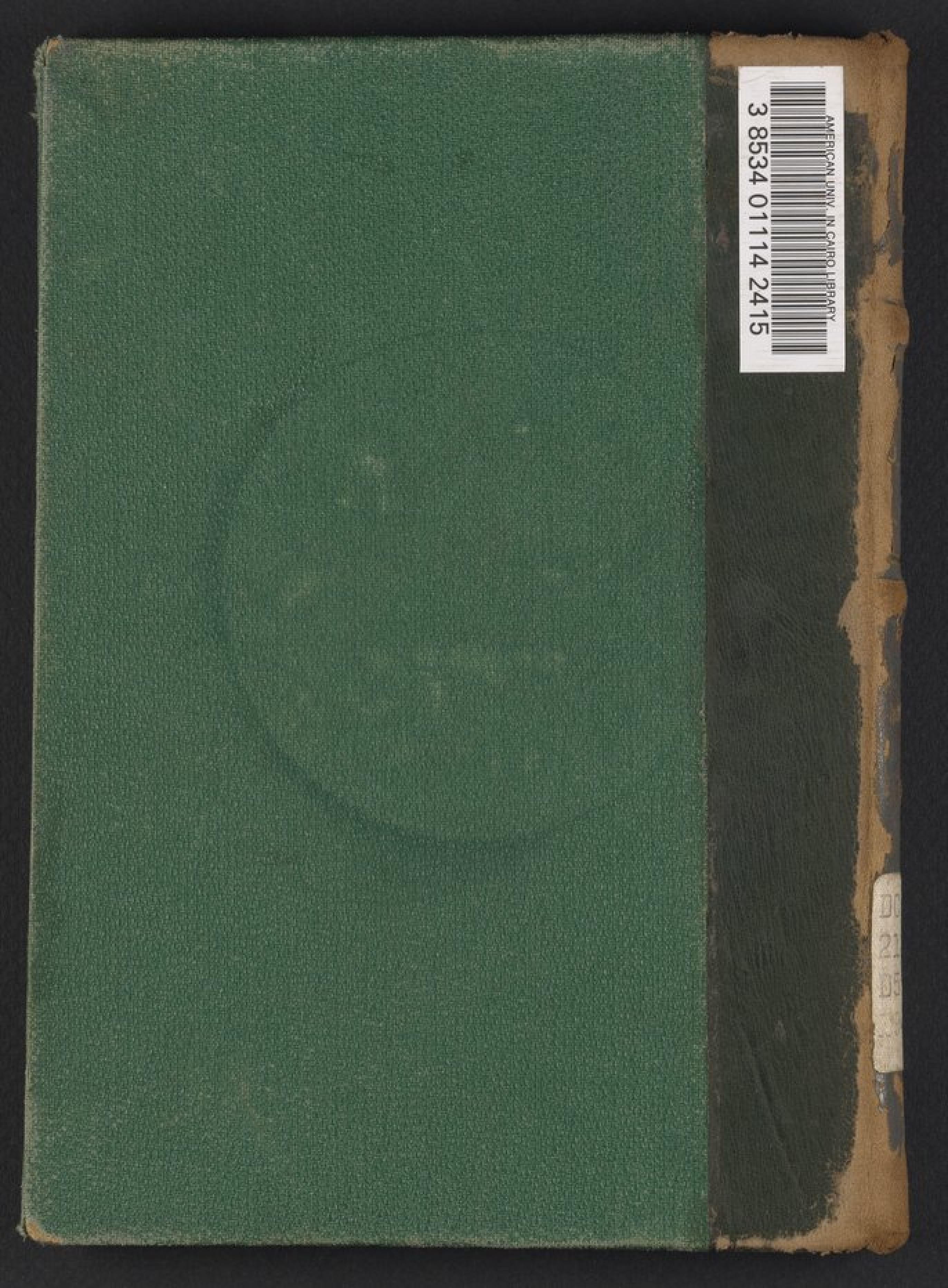
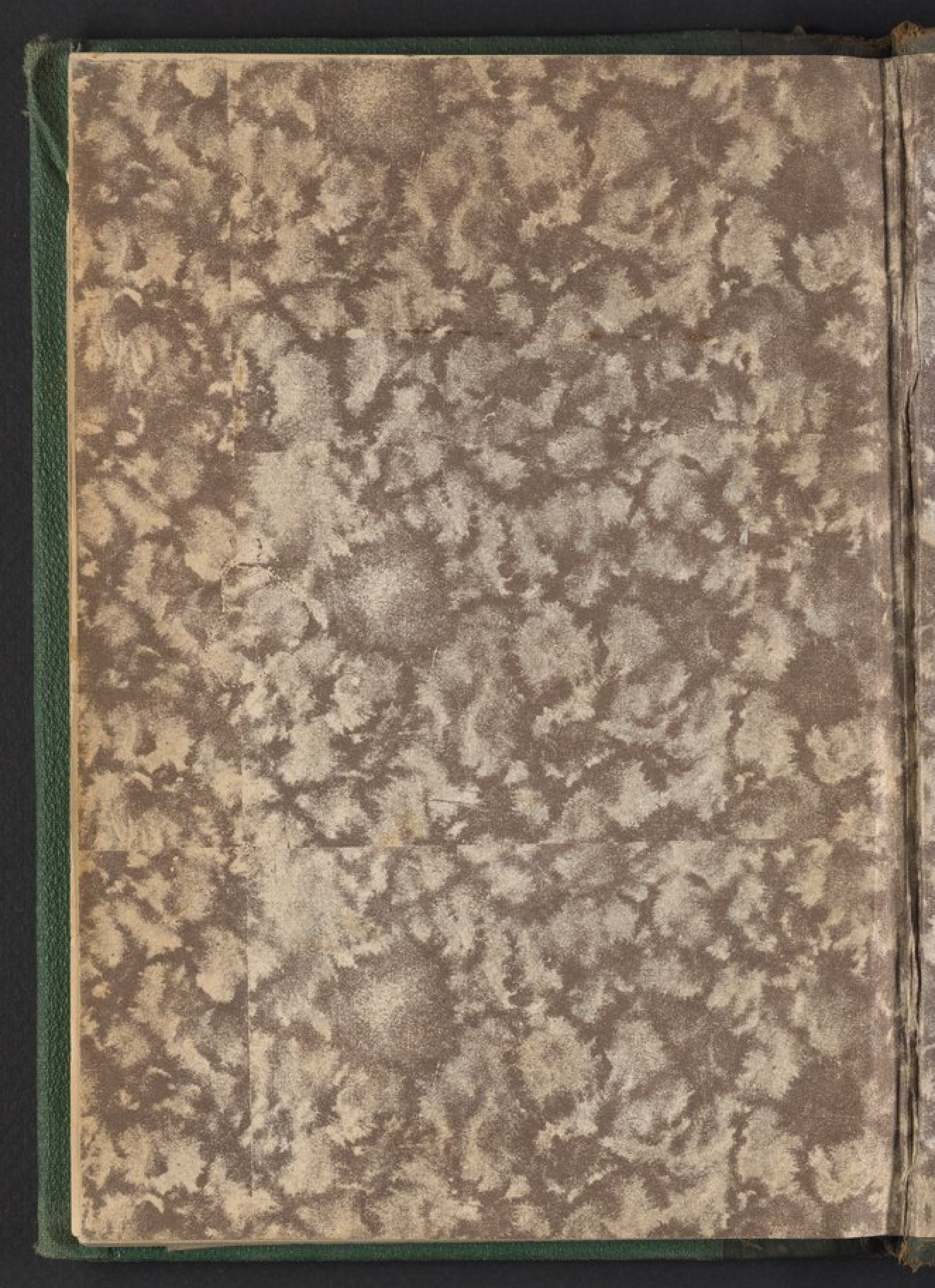

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01114 2415



دكتور مصطفى الديوانى

نابليون
على فراش الموت

الناشر

[مكتبة النهضة المصرية ٩ عدلى باشا بالقاهرة]

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية
١٩٤٥



ارتقى جذع شجرة عاتية بسانت هيلانه وراح يفكر فى الماضى القريب

الاهداء:

إلى ولدى نبيـــه

[illegible]

[illegible]

بدء النهاية

حملة نابليون على روسيا

[لما آن للنجم أن يأفل ، وللشعلة الدائمة أن تخبو ، أضله الوحى أن يذهب إلى روسيا حيث الخير العميم والنعيم المقيم فلم يجد إلا البرد والموت والدمار . .]

غادر الإمبراطور ميناء دانتزج فى ١١ يونيو ١٨١٢ ووصل إلى كونجسبرج فى اليوم التالى وهناك أشرف على تجهيز المؤن والأغذية اللازمة لجيشه خلال زحفه فى روسيا الواسعة الأرجاء وكان يهتم بأدق التفاصيل وعلى إرشاداته طول الليل والنهار ويعززها بقولهِ « يجب أن نحمل كل شىء معنا . إن الألوف المؤلفة التى فى حملتى لا يكفيها قمح بلد ما تحتلهُ أو تستقر به ولا ما فيه من طعام . فما لم نتخذ حيطتنا عرضنا الجيش لجوع محقق إن عاجلاً أو آجلاً » .

وكان قوامُ الجيش أربعمائة وعشرين ألف رجل نظموا فى ثلاثة عشر فيلقاً عدا الحرس الإمبراطورى وكان يصحبها بضعة

آلاف من عربات الذخيرة وقطعان لا حصر لها من الثيران وألف وثلاثمائة واثنان وستون مدفعاً وعشرون ألف عربة من مختلف الأحجام ومائة وسبعة وثمانون ألف حصان . وتحركت هذه الجحافل كتلة واحدة حتى وصلت إلى ضفة نهر (النيمن) وكان الجو بديعاً والسماء صافية والحقول خضراً مزدهرة وكانت الساعة الثانية صباحاً عند ما وصل نابليون إلى بلدة (كاونو) فأخذ ينظر إلى الفضاء الواسع أمامه على الضفة الأخرى من النهر فشعر بدهشة غريبة إذ لم يواجه إلا ظلاماً دامساً وكان كل شيء يدل على أن أهل هذه المدائن قد هجروها . والواقع أن القيصر اسكندر كان قد أصدر تعلياته بأن يتقهقر الجيش بانتظام أمام العدو وأن يدمر فى أثناء انسحابه المنتظم جميع الجسور والقرى والمدائن فلا يترك للعدو سوى الجوع والعراء والحر اللافح أو البرد القارص .

ونصبت الجسور فى ثلاثة مواقع من النهر وأخذ الجيش يعبره فى نظام ودقة والإمبراطور يراقبه عن كثب وبرغم حرصه على أن لا يفقد جنديًا واحداً فى أثناء عبور النهر فإن بعض الفرسان البولنديين حاولوا عبور النهر وهم على ظهور جيادهم فاكتسحهم التيار وقبل أن يبتلعهم اليم نظروا خلفهم وألقوا نظرتهم الأخيرة على نابليون وصاحوا وهم فى النزع الأخير « يحيي الإمبراطور ! » . ومضى الجيش فى زحفه حتى وصل إلى ضواحى مدينة (فيلنا) فى اليوم السابع والعشرين .

وكان القيصر الكسندر فى حفلة راقصة فى قصر أحد النبلاء فلما سمع أن نابليون يجتاز نهر النيمن أسرع إلى مغادرتها بعد أن أصدر أوامره بأن تحرق جميع ممتلكاته ومخازنه بما فيها حتى لا تقع فى أيدى العدو .

ودخل نابليون مدينة (فيلنا) فى ٢٨ يونيو فاستقبل استقبال الغزاة الفاتحين . لأن هذه المدينة كانت عاصمة ذلك الجزء من بولندا الذى اغتصبه الروسيون . فعدَّ أهلها الإمبراطور محررهم من ربقة الاستعباد ومعيد مجد مملكتهم التى اقتسمتها الدول المحيطة بها .

ومكث نابليون فى هذه المدينة ثمانية عشر يوماً نظم فيها شؤون جيشه واعتنى بأمر سكان الأرض المحتلة فأقام فيهم حكماً صالحاً وهو ينتظر وصول مؤن لجيشه الكبير . وعلى الرغم من أنه لم يخض معركة ما فإنه فقد عشرة آلاف حصان نفقت جوعاً وتعباً وامتلأت المستشفيات بالمرضى من رجال جيشه حتى لقد لجأ إليها خمس وعشرون ألفاً من الجنود .

وفى أثناء مقامه بهذه المدينة أرسل إليه القيصر رسولا ليعرض عليه استعداده للدخول فى مفاوضات للصلح على شرط أن يتقهقر نابليون بجنوده إلى ما وراء نهر (النيمن) فرفض الإمبراطور على الفور وأظهر استعداده للمفاوضة على شروط معقولة . ولكن القيصر لم يسعه إلا الرفض نظراً لارتباطه بمعاهدات مع انكلترا حددت فى ذلك الوقت حريته فى العمل .

ومضى نابليون فى تقدمه والروسيون ينسحبون أمامه تاركين وراءهم الخراب والدمار والنار فى كل مكان فكانت جياده تنفق لعدم وجود العلف اللازم وجنوده يفنون جماعات جماعات من الجوع، وكان الجيش قد توغل خمسمائة ميل فى داخل الأراضى الروسية بدون أن يلقى مقاومة أو عدوًا . فجمع نابليون مجلس الجيش فأشار عليه معظم أركان حربه أن يوقف الزحف حتى حلول الربيع . ولكنه رفض هذا الاقتراح رفضاً حاسماً وعزم على مواصلة الزحف حتى يحتفظ بسمعته بين رجال جيشه وأفراد الشعب الفرنسى الذين كانوا ينتظرون فى لهفة وجزع نتيجة الحملة الروسية . وكان نابليون يعلم أن القيصر قد جمع قواته وعتاده عند مدينة سمولنسك استعداداً لموقعة فاصلة . فاستأنف زحفه فى يوم ١٣ أغسطس وكان الحر شديداً لافحاً فمات كثير من جنوده ونفق كثير من خيله . وبعد رحلة شاقة مضنية وصل إلى أبواب سمولنسك مساء يوم ١٦ أغسطس فاعتلى نابليون ربوة عالية وأخذ يرقب بمنظاره جموع العدو المحتشدة فى نظام واستعداد فصاح وهو مغتبط من أعماق قلبه « هاقد وجدتهم أخيراً » وحدث قتال بين طلائع الجيشين، نجح الروس فى أثنائها فى إخلاء المدينة وتدمير مستودعاتها . وبعيد منتصف الليل فوجىء الفرنسيون باندلاع حرائق هائلة أتت على مابالمدينة من قصور ومنازل ومخازن وكنائس . فنظر نابليون فى سكون وحزن إلى هذا الحريق المخيف

وقال « إن هذا المنظر يشبه ما يراه سكان نابولى عند ما يثور بركان فيزوف » وعندما دخلت فرقة فرنسية المدينة فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل لم تجد فيها جنديًا روسيًا واحداً بل بلغت قسوة الروسيين فى تقهقرهم أن تركوا جرحاهم وموتاهم طعمة للنيران . وكان أول أمر أصدره نابليون هو العناية بهؤلاء التاعسين والرفق بهم ما أمكن . وعندما لاح الفجر صعد الإمبراطور إلى قمة إحدى القلاع وسدّد منظاره إلى الجيش المنسحب فوجده قد انقسم قسمين أحدهما اتجه شمالا فى طريق بطرسبرج والآخر نحو موسكو . فأصدر أوامره بملاحقة العدو ونصب المارشال ناى قائداً على الجيش المتجه نحو موسكو .

وبينما نابليون يتجول فى أنحاء المدينة متطلعاً إلى خرائبها ونيرانها المندلعة تقدم منه كاهن روسى تخلف فى المدينة ليعنى بالجرحى والنساء والأطفال ، وفى نبرات تنم على الشجاعة حمّل نابليون تبعة ما حلّ بالمدينة من خراب ودمار فأنصت إليه الإمبراطور باحترام حتى انتهى من حديثه ثم سأله « هل أصيبت كنيستك أيها الأب بضرر ما ؟ » .

فأجابه القس « إن إرادة الله فوق إرادتك أيها الإمبراطور . إن الله حفظ كنيستى ليأوى إليها التاعسون الذين حرقت بيوتهم وأصبحوا بلا مأوى » .

فتأثر الإمبراطور وقال « إنك لعلى حق أيها الأب . إن الله سيرعى ضحايا هذه الحرب الغشوم وسيكافئك على شجاعتك وصبرك . إذهب أيها الكاهن إلى كنيستك و بلغ جميع زملائك أنهم فى أمان لأنهم يخدمون قضية السلم التى كلفتهم العناية الإلهية رعايتها . إننا جميعاً مسيحيون . وربكم هو ربنا .

وصرف نابليون الكاهن بكل احترام وأمر بعض جنوده بمرافقته إلى كنيسته . ولما رأى اللاجئون فى الكنيسة الجنود المرافقين للكاهن صرخوا فزعاً و رعباً فطمأنهم القس قائلاً « لاتخافوا ياأولادى لقد رأيت نابليون وتكلمت معهُ إنه بشر مثلنا و يعبد الإله الذى نعبده . إن حربه حرب سياسية وليست بحرب دينية . إنه فى نزاع مع قيصرنا ، وجنوده تحارب جنودنا . إنهم لا يذبحون النساء والأطفال كما قيل لنا » .

وتابع نابليون مطاردة الجيش المتقهقر . و برغم انتصاراته المتوالية فقد استمر الروسيون فى سياسة التخريب والتدمير . فأخذت الجيوش الفرنسية تعانى الأمرين لقلة المؤونة والطعام والمأوى . وازدحمت المبانى التى نجت من فعل النيران بآلاف الجرحى والمرضى . وكان الإمبراطور فى حالة يأس شديد ، إن النكوص يعرضهُ لسخرية أوروبا والتقدم لا يمليه عليهِ إلا القنوط ، ومع ذلك صمم على مطاردة الجيش الروسى حتى موسكو بجيشه الجائع العارى تقريباً ولم يكن

يخطر له أن القيصر اسكندر سوف يجرؤ على حرق موسكو بآثارها الخالدة ومجدها التليد وسكانها البالغ عددهم ثلاثمائة ألف نسمة .

وكان التقدم بطيئاً ومضنياً . وشنت العصابات الروسية حربها على الجنود المنهكين وأقامت كل عقبة ممكنة فى سبيل الجيش التعس حتى إذا كان يوم ٤ سبتمبر وصلوا إلى مدينة (بورودينو) حيث صادفوا أول مقاومة جدية ، إذ ترصدهم جيش قوامه مائة وسبعون ألف جندى مجهزين أتم تجهيز ومستعدين لبذل آخر قطرة فى سبيل حماية الطريق إلى موسكو . وفحص نابليون جموع العدو المحتشدة عن بعد وأدرك بنظرته الفاحصة مواطن الضعف التى يجب أن يسدد هجومه إليها ليوقع الارتباك فى صفوف العدو . ونصبت الخيام وأخذ الجيش يتأهب للهجوم .

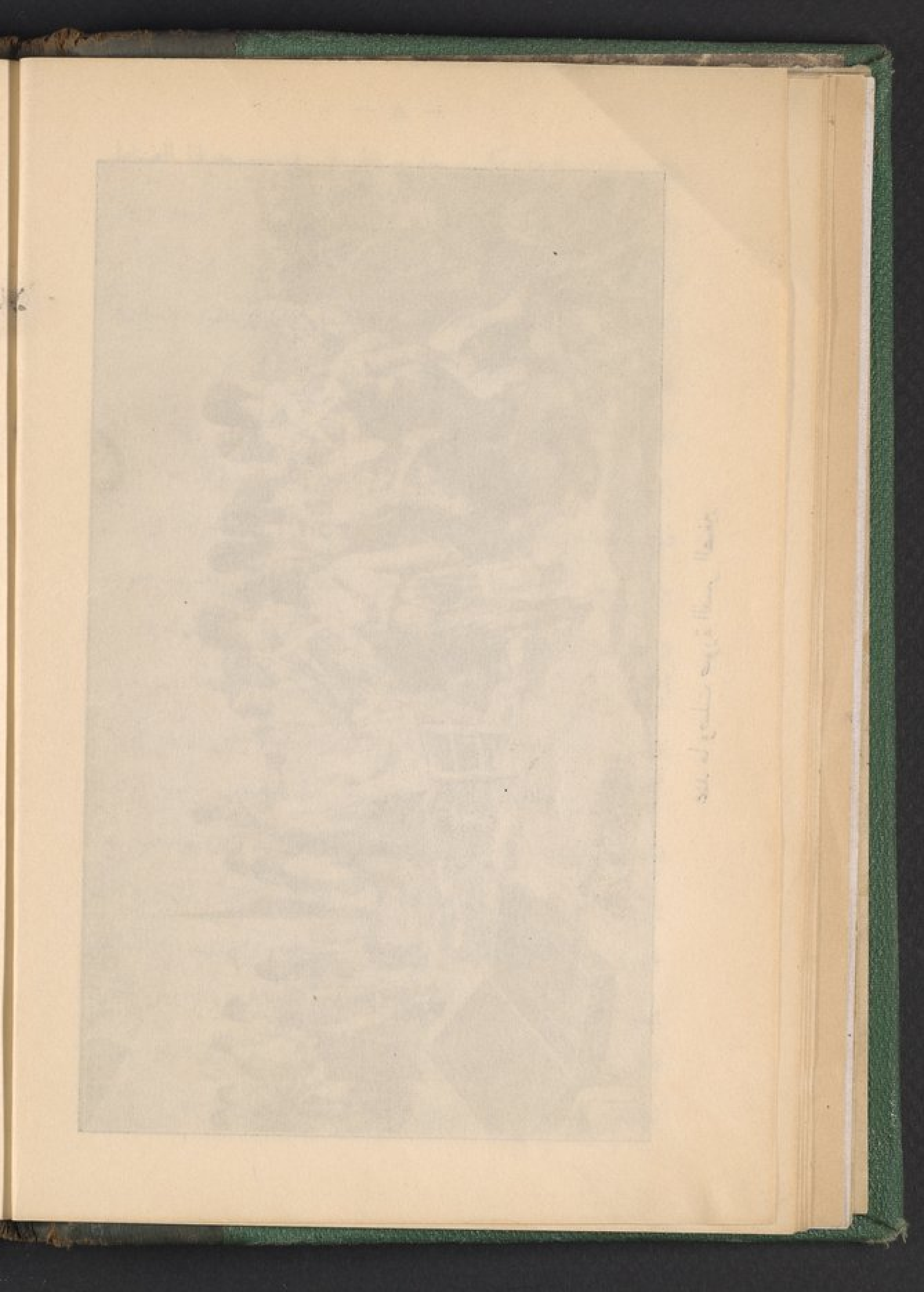
وجلس نابليون فى خيمته يفكر فيما قد يأتى به الغد ، وإذا برسول يحمل إليه خطاباً وصل فى تلك الساعة من زوجته مارى لويز ومعه صورة لولده العزيز . وكان الفجر يوشك أن ينبلج وكان نابليون يتوقع معركة دامية فاصلة عند انبلاجه ، ولكن ذلك لم يشغله عن استقبال الرسول فى الحال فأخذ منه الرسالة بلهفة عظيمة وحالما وقع نظره على ولده المحبوب انهمرت الدموع من عينيه . وكانت الصورة تمثل الطفل وهو يلعب فى مهده وأمامه كرة وكأس . وأراد الإمبراطور أن يشرك معه ضباطه وجنوده فى سروره ونشوته فقام من مقعده

ووضع الصورة على كرسى خارج الخيمة . فتجمع حولها الضباط والجنود ونظروا إليها فى سكون مقابلين بين حالتهم الرثة المتعبة و بين ما تسعد به تلك الطفولة البريئـة من هدوء وراحة بال . ثم أمر نابليون سكرتيره بإدخالها ثانية إلى الخيمة وقال فى حزن « خذها إلى الداخل وحافظ عليها . يجب أن لا تقع عيناه على ميدان قتال وهو فى هذه الطراوة » .

وحاول نابليون أن ينام قليلاً ولـكن تعبه وجزعه حالا دون ذلك وأصابه عطش شـديد وعبثاً حاول أن يروى غليله . وما أن بزغ الفجر وانقشعت السحب حتى امتطى نابليون صهوة جواده ونظر إلى الشمس المشرقة فى انشراح وأمل وقال لمن حوله « إننى أرى شمس أوسترليتز » وكانت معركة حامية كلف النصر فيها نابليون غالياً ، فقد فقد ثمانية من أعظم قواده من بينهم كونت كولينكور . وما جاء يوم ٨ سبتمبر حتى ملك نابليون ناصية الموقف فاحتل المدينـة بينما بدأ الجيش الروسى فى التقهقر نحو موسكو . ولم يفرح نابليون بتلك النتيجة لأنه فقـد فى تلك المعركة ثلاثين ألف جندى وثلاثة وأر بعين من قواده الذين لازموه فى انتصاراته السابقة بين جريح وقتيل ، وتخيـل حزن اليتامى والأرامل والوالدين الذين فقدوا أعزاءهم فى تلك المعركة الدامية وثوب الحـداد الذى سوف تلبسه فرنسا لضخامة الخسارة وكثرة الضحايا .



عند ما وصلت صورة النسر الصغير



ومضى نابليون فى زحفه حتى وصل إلى أبواب موسكو ظهر يوم ١٤ سبتمبر وبينما هو معتلٍ صهوة جواده أمسك بمنظاره وأخذ يتطلع من بعيد إلى موسكو الخالدة بقبابها ومآذنها وصاح من قلبه قائلا « يا إلهى ! ها هى ذى عاصمة القياصرة المشهورة » وظن الجنود البؤساء أن متاعبهم قد قاربت الانتهاء فأخذوا يصيحون بدورهم « موسكو ! موسكو ! » وأسرعوا فى التقدم نحو المدينة ولكن عجبهم كان شديداً إذ لم يلاحظوا عليها أثراً ما للحياة أو الحركة. وجاءتهم الأخبار من فرق الكشافة أن الروسيين قد هجروا المدينة. ولم يخطر لنابليون أن النية مبيتة على إشعال النار فيها بالرغم من أن معظم سكانها قد أرغموا على اللجوء إلى الغابات المجاورة حيث هلك كثيرون جوعاً وبرداً، بينما لحق الباقون بالجيش المتقهقر. وكان الانسحاب سريعاً حتى إن السيدات تركنَ حليهنَّ وأدوات زينتهنَّ فى أماكنها، وخلَّف رجال الأعمال أوراقهم ومجلداتهم ومستنداتهم على المكاتب وفى الأدراج.

وعين نابليون (مورتييه) حاكماً على المدينة. وفى الصباح انتقل إلى قصر الكرملين واتخذه مقرّاً وكتب إلى القيصر الكسندر يعرض عليه صلحاً شريفاً مذكراً إياه بصداقتهما القديمة. وأخذ الجنود يجولون فى أنحاء المدينة المهجورة. واحتلوا قصورها الفخمة واتخذوا منها مساكن لهم.

وبقى بالمدينة حوالى العشرين ألفاً من أحط طبقات الروس وعشرة آلاف مسجون أطلق سراحهم قبل انسحاب الجيش فأخذوا يعدون العدة فى الخفاء لتدمير المدينـة وإحراقها فتسللوا إلى أقبية الكرملين حيث كان يقيم نابليون وأركان حربه وإلى جميع القصور والأبنية التى يقيم فيها الفرنسيون ودسوا فيها سراً مقادير من البارود تكفل لهم الانتقام من محتليها فى الوقت المناسب . ثم دمروا خزانات المياه وأنابيبها وعطلوا أدوات إطفاء الحريق وقد انتهز هؤلاء الروسيون فرصة الهرج الذى ساد عند دخول الفرنسيين المدينة ودبروا خططهم دون أن يلحظهم أحد .

وآوى نابليون إلى فراشـه فى منتصف ليل ١٦ سبتمبر ١٨١٢ وهو فى أشد حالات التعب وشرود الفكر وانشغال البال . وكانت العواصف تهب بشدة . وفجأة امتلأت الشوارع بتلك الصيحة المخيفة التى طالما خشيها نابليون ألا وهى « النار ! النار ! » واندلعت ألسنة اللهب فى شرق المدينة وسمع دوى الانفجار فى كل مكان فعصفت بالمنازل والقصور وأودت بحياة من فيها . وشوهدت منازل كثيرة وهى تتطاير فى الهواء من هول الانفجار . واهتزت أرجاء المدينة فى شبه زلزال مخيف ، أو بركان يقذف حممه . وساعدت العواصف على امتداد ألسنة النار فى جميع أنحاء المدينة فتحولت المدينة فى مدة قصيرة إلى جحيم .

واستيقظ نابليون من نومه وهو جزع مضطرب وأخذ يذرع غرفته جيئةً وذهاباً يملى أوامره بينما ينظر فى يأس واضطراب إلى النيران المندلعة . وكان قصر الكرملين تحيط به حدائق واسعة وأسوار عالية تحول دون وصول النار إليه . فأخذ نابليون يتمتم قائلا « يا له من منظر مخيف يا إلهى ! هل تذهب جميع هذه القصور الفخمة طعمة النيران . يا لهم من قوم قساة ! انها أساليب وخطط وحشية » . واستمرت النيران طيلة يوم ١٧ سبتمبر وساعدتها الزوابع على الانتشار .

وأخيراً وصلت النيران إلى قصر الكرملين وأحاطت به من كل جانب حتى بدا الهرب منه لأول وهلة فى حكم المستحيل . وأخذ الإمبراطور وحاشيته يبحثون عبثاً عن مخرج لهم من هذا الجحيم وقد كادوا يختنقون بفعل الدخان والنار . وكانوا كلما ظنوا أن الفرج قريب اندلع ستار من اللهب فسدَّ طريقهم . وأخيراً وجدوا طريقاً ضيقاً متعرجاً اضطروا إلى اقتحامهِ بالرغم من اندلاع النيران على جانبيه . ولكن ما الحيلة وقد كان ذلك مخرجهم الوحيد من موت محقق . واستمروا فى سيرهم والدخان يفعل فعله فى عيونهم وحناجرهم . وفجأة وقف مرشدهم وقال إنه لا يعلم إلى أى طريق هم متجهون ، فأسقط فى أيديهم وظنوا أن النهاية قربت وأسلموا أمرهم إلى القدر . ووقف نابليون فى هدوء وسكينة يفكر فى طريقة



نابليون في قصر الكرملين ينظر إلى الكرسي الذي طالما جلس عليه القيصر

للخروج من هذا المأزق . وفجأة ظهر المارشال (داڤوست) ، وكان برفقة بعض الجنود يبحث عن مولاه ، فما كاد يلمحهُ نابليون حتى احتضنه بشوق ولهفة ثم تابع معه السير إلى خارج أسوار المدينة حيث لجأ إلى قصر بتروفسكى على بعد ثلاثة أميال من المدينة .

وانسحب الجيش الفرنسى من المدينة وعسكر فى الفضاء الواقع حولها . وكان الجزع والجوع قد أخذا منه كل مأخذ . وكان الشتاء يقترب ببرده القارس وقد حرمهم حريق موسكو مأوى يلجأون إليه عند اشتداد البرد . وكان يفصلهم عن فرنسا المحبوبة أكثر من ألفين من الأميال ، فكان الموقف على العموم داعياً إلى اليأس والقنوط .

وأخذت النيران تميل إلى الخمود ، ونجا جانب كبير من الكرملين من فعل النار فعاد نابليون إليه مع حاشيته فى يوم ١٨ سبتمبر . وهو ينتظر وصول رد من القيصر اسكندر على خطابه ولما لم يصلهُ الرد أرسل مندوباً من قبلهِ لمقابلة القائد العام الروسى (كوتوسوف) فقابله هذا بفتور ووعده بمقابلة مولاه القيصر ليعرض عليه خطاب نابليون .

وتحت تأثير هـذه العوامل المختلفة دعا نابليون مجلس أركان حربه للتشاور ، وبعد مناقشات تاريخية استقرّ الرأى على الانسحاب من روسيا .

مكث نابليون وجيشه فى موسكو مدة أربعة أسابيع بعد احتلالها .

ولم يأل جهداً خلال هذه المدة فى إعادة تنظيم جيشه وإقرار النظام بعد الفوضى التى سادت عقب حريق موسكوا المدمر . ما أكثر الليالى التى قضاها وهو يعمل على راحة جنده وخاصة الجرحى منهم ويراقب فى قلق تطور الجو المنتظر فراجع التقارير الجوية عن الأربعين السنة التى سبقت الحملة ليستوثق بنفسه من ميعاد بدء الشتاء الحقيقى فى روسيا وكان يحدوه أمل الصلح مع القيصر ولكنه تبين الخطر فاستفحل همهُ وشحب لونه ونقص وزنه .

وبحلول شهر اكتوبر بدأت أوراق الأشجار تتساقط تاركة الأغصان عارية تتلقفها رياح الشمال العاتية ، وبدأ الثلج والصقيع قبل ميعاده الطبيعى بثلاثة أسابيع مما زاد فى هم الإمبراطور وتصميمه على الإسراع فى الارتماء فى أحضان بولندا ، بمدنها العامرة حيث يجد الجنود ناراً وطعاماً ومأوى . وبالرغم من أن المسافة إلى بولنده حوالى ألف ميل إلا أنه صمم على القيام بهذه المغامرة معتزماً أن يسلك طريقاً آخر غير الذى سلكه عند زحفه آملاً أن يصادف مدائن عامرة بدل الخرائب والأطلال والحرائق التى تركها الروس وراءهم عند تقهرهم .

وبدأ التقهقر فى يوم ١٨ اكتوبر ١٨١٢ . وعهد نابليون إلى مورتييه — وكان قد عينه حاكماً على موسكو — فى حماية مؤخرة الجيش وترك معه ثمانية آلاف جندى . وخرج الإمبراطور من قصر

الكرملين فى فجر ١٩ اكتوبر وكانت السماء صافية والهواء بارداً منعشاً والنجوم تتألق . ولما خرج نابليون من حدود موسكو كانت الشمس قد أشرقت فى الأفق البعيد فأشار إليها نابليون بأصبعه قائلا لمن حوله « أنظروا يا رفاق ! ها هو نجمى الحارس ! هيا بنا إلى كالوجا . والويل لمن يقف فى طريق ! » .

ثم تقدم إلى مورتييه — حاكم موسكو — واحتضنه وقال له بصراحة وحزن « إن مهمتك شاقة وخطيرة ولكن علينا واجبات وتضحيات سوف نتقاسمها جميعاً » .

وقد احتمى مورتييه وراء أسوار الكرملين . ووضع فى أقبيته وسراديبه مائة وثلاثة وثمانين ألف رطل من البارود ووزع براميل كثيرة منه فى غرف القصر وممراته حتى إذا ما استوثق من أن آخر جندى فرنسى قد رحل عن المدينة أشعل النار فى البارود فأخذ يشتعل ببطء بينما أخذ هو وجنوده ينسحبون بسرعة ولما رأى القوزاق أن القصر خالياً هجموا عليه طامعين فى الاستيلاء على مابه من نفائس . ولكن ما لبث أن دوى فى الجو صوت انفجار هائل أتى على القصر ومابه وقضى على عدد كبير من جنود العدو . وكان الانفجار شديداً فاستيقظ نابليون من نومه مع أنه كان على مسيرة ثلاثين ميلاً من موسكو . فتنهد تنهد الارتياح إذ علم أن جنود المؤخرة قد غادروا المدينة .

وبدأ الروس يناوشون الجيش المنسحب فى مساء ٢٣ اكتوبر وكان الجنود مستغرقين فى نوم عميق وقد أنهكهم عناء السير طول النهار . ففى الساعة الرابعة صباحاً هجم عليهم خمسون ألف جندى روسى وكانت صرخات الحرب المزعجة تنطلق من حناجرهم فى سكون الليل . فأسرع الأمير أوجين إلى جنود فرقته وأيقظهم من سباتهم ليقاتلوا العدو المغير وبعد معركة شديدة خسر فيها الفريقان اضطر الروسيون إلى الانسحاب نحو الغابات المجاورة ولما سمع نابليون بما فعله أوجين دعاه إليه وضمه إلى صدره فى حنان أبوى وقال « هذا أمجد ما قمت به فى حياتك » .

واستمرت كرات العدو فى فترات متقطعة على الجيش التعس ورغم ذلك صمم نابليون على متابعة السير ليصل إلى سمولنسك ومنسك مهما يكلفه ذلك حيث كان قد ترك حامية قوية وأعدّ ثكنات للجنود بها جميع وسائل الراحة . وكان الروسيون يبدون منتهى القسوة فى هجومهم على جيش نابليون وكانوا يغيرون عليه فى الليل والنهار بلا هوادة غير مبالين بحاجة جنوده إلى ساعات قليلة من الراحة فى الليل أو النهار . ومضى الجيش المنهك فى رحلته المحفوفة بالأخطار فوصل إلى بورودينو فى يوم ٢٨ اكتوبر وفيازما فى يوم ٣١ منه . وهناك عهد إلى المارشال (ناى) فى مهمة حماية مؤخرة الجيش . وعند ما استأنف الجنود مسيرهم هبت عاصفة ثلجية

على الجنود ودفن الكثيرون منهم أحياء تحت الثلج . وياليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل أحاطت بالجيش وهو فى محنته جماعات من جنود العدو وأخذوا يصلونه ناراً حامية . وكان القوزاق يمثلون بجثث الموتى أشنع تمثيل ، وكانوا إذا رأوا جندياً يعالج سكرات الموت ينزعون ملابسه ويتركونه عارياً وسط الثلوج وينصرفون عنه وهم يضحكون فى قسوة وغلظة . أما إذا أخذتهم الشفقة عليه فإنهم كانوا يشطرونه بسيوفهم أو ينخسونه بالسنج حتى يدركه الموت .

وهكذا استمرت الحال طيلة الطريق إلى سمولنسك . يأتى الليل الطويل ببرده وثلجه وعواصفه فتهلك معه الألوف من الجنود والخيل . وكان الجنود ينزعون جلود الجياد النافقة ويلتحفون بها . وكانوا يضطرون أحياناً إلى قتل الجياد حتى يرتوى الجنود بدمائها الساخنة لعلها تساعدهم على مقاومة البرد . وكان المارشال (ناى) طولة الرحلة يتولى حماية المؤخرة على أوفى وجهٍ . وكان جنوده يسقطون الواحد تلو الآخر حتى يفنوا عن آخرهم فيستبدلهم بغيرهم . وأبدى المارشال من ضروب الشجاعة والبطولة ما جعل نابليون يطلق عليه لقب « أشجع الشجعان » .

وقبيل الوصول إلى سمولنسك جاء رسول يحمل بعض الرسائل إلى الإمبراطور فأخذ يفضها باهتمام وتلهف فإذا به يعلم بتدبير مؤامرة فى باريس لقلب الحكومة الإمبراطورية . فقد زور أحد الضباط

واسمه (ماليه) مستنداً يثبت موت نابليون فى أثناء الحملة الروسية فساد الذعر فى البلاد وانتهز ماليه الفرصة وجمع حوله بضع مئات من الحرس الأهلى وحاول أن يقبض على زمام الحكم ولكن المؤامرة سرعان ما أحبطت وقبض على الضابط وأعدم رمياً بالرصاص .

فصمم الإمبراطور على أثر قراءة هذا التقرير أن يسافر وحده فى أقرب فرصة يطمئن فيها على مصير جيشه ولما دخل غرفته استدعى الجنرال راب وقال له « إن المصائب لا تأتى فرادى ! كأن الله يريد أن يزيد فى متاعبى وأشجانى ! إن وجودى فى باريس ضرورى ويجب أن أعود إليها فى القريب العاجل » .

ومكث نابليون فى سمولنسك خمسة أيام استجمع فيها قوات جيشه وشراذمه المبعثرة وما أن استأنف رحلته حتى بدأت معها متاعب أخرى مردُّها إلى إغارات العدو المتوالية . وكان أهمها الهجوم الكبير الذى قام به القائد الروسى كوتوسوف بجيش من تسعين ألف رجل وافى العدة ووافر الغذاء والملبس . وكانت المعركة شديدة خسر فيها نابليون الآلاف المؤلفة من جنوده واضطر لامتشاق الحسام بنفسه قائلاً « إننى أنزل من مقامى كامبراطور لأعود إلى منصب الجنرال الذى طالما تقت إليه » .

وقاد جنوده واخترق صفوف العدو وأوقع الاضطراب فيها مما

اضطرهم إلى الانسحاب رغم تفوقهم عدداً وعُدّة بعد أن تكبد الفريقان خسائر فادحة .

وواصل الجيش سيره وقد أخذت منه الضربات المتوالية كل مأخذ ولعلّ كارثة عبور نهر (البيريسينا) كانت أشد كارثة لحقت بالجيش الفرنسى . وكان الروس قد دمروا الجسر الوحيد القائم على النهر . فكان على الفرنسيين أن يقيموا جسراً آخر . وفعلاً نجحوا فى تحويل أنظار العدو المتربص بهم ريثما أتموا بناء الجسر وكانوا يشتغلون فى أثناء الليل ويختبئون فى الغابات فى أثناء النهار . وكان الإمبراطور يشرف بنفسه على العمل .

ولما حان وقت عبور النهر تقدم نابليون الجموع وعبر النهر إلى الضفة الأخرى وقد صاح عند وصوله قائلاً « إن نجمى لا يزال عالياً ! » ولكنه ما كاد يتم كلمته حتى قصفت مدافع الروس وصوبت قنابلها الفتاكة نحو الجسر فغرق وقتل ألوف من جنوده . ولكن نابليون جمع قواته البالغ عددها بضع عشرات من الألوف ورد هجوم العدو بينما أخذ المهندسون فى إصلاح الجسر منتهزين فرصة انصراف العدو عنهم . واضطر العدو أخيراً إلى التقهقر مؤجلاً انتقامه إلى فرصة أخرى .

ووصل الجيش المنكوب إلى الأراضى البولندية واطمأن نابليون نوعاً ما فدعا قواده إلى العشاء معه وبعد أن فرغوا منه أبدى لهم

رغبته فى الرحيل إلى فرنسا تاركا لهم مهمة إتمام الرحلة مؤكداً لهم أنه سيعود إليهم قريباً على رأس ثلاثمائة ألف جندى مجهزين مدربين ليستأنف زحفه على روسيا . ثم ضمهم إلى صدره الواحد بعد الآخر . وكانت الساعة قد بلغت العاشرة مساء . فأعدت له زحافتان انتظرتاه عند الباب فتجمع حوله ضباطه مودعين إياه فى تأثر ، وركب إحداها نابليون وجلس بجانبه كولينكور (وهو شقيق القائد الذى قتل قبلاً) وركب الأخرى دوروك ولوبان . وكان حرسهم مؤلفاً من بعض أفراد الحرس الإمبراطورى .

و بعد رحلة قصيرة تعرض نابليون فى أثنائها للأسر بضع مرات وصل الجميع بسلام إلى (فيلنا) ودخلوا وارسو فى ١٠ ديسمبر . و بعد راحة قصيرة استأنفوا رحلتهم فوصلوا درسدن فى الساعة الواحدة بعد منتصف ليل ١٤ ديسمبر وفى منتصف ليل ١٨ ديسمبر كانوا على أبواب باريس .

وكانت الإمبراطورة فى ذلك الوقت قد أوت إلى مضجعها فى قصر التويلرى ولم يكد يخطر لها أن زوجها الإمبراطور بباب القصر . وفجأة سمعت أصوات عالية صادرة من الحرس الواقفين فى الردهة الخارجية و بدرت من إحدى الوصيفات صرخة خافتة فاستوثقت الإمبراطورة من أن شيئاً غير عادى قد حصل فقفزت من سريرها وفى هذه اللحظة فتح الباب ودخل رجل قصير القامة وقد غطى جسمه من أعلى رأسه

إلى أخمص قدميه بالفرو الثقيل وهجم عليها واحتضنها ولما دققت النظر عرفت فيه زوجها الإمبراطور .

وألقى نابليون هم الحملة الروسية وراءه على المارشال (ناى) وأعوانه . وأبدى المارشال شجاعة وتجلداً سوف يتحدث عنهما التاريخ مدى أجيال مقبلة . وعند عبور نهر (النيمن) الذى تنتهى عنده الأراضى الروسية كان هو آخر من عبر النهر . وأطلق آخر رصاصة لديه على الجنود الروسيين المتربصين على الضفة الأخرى ثم ألقى مسدسه فى النهر وواصل سيره ، حتى بلغ منزل طبيب القرية المجاورة فوجد هناك صديقه الجنرال (دوماس) جالساً مع الطبيب وهما يتحدثان . وكان المارشال يمثل الحملة بمتاعبها و بؤسها والأهوال التى لاقتها فكان ضامر الجسم شاحب الوجه طويل الذقن وقد اسود جلده من دخان البارود . وما أن دخل الغرفة حتى ارتمى على مقعد قريب وقال « اننى هنا أخيراً . ماذا دهاك يا دوماس ولماذا تنظر إلىّ هكذا ألا تعرفنى ؟ » فكان الجواب « لا ! من أنت ؟ » .

فقال (ناى) « إننى مؤخرة الجيش الإمبراطورى . أنا المارشال ناى . لقد أطلقت آخر رصاصة عندى بعد عبور جسر كوفنو وألقيت فيه آخر ماتبقى عندى من السلاح ثم اخترقت الغابة المجاورة ووصلت اتفاقاً إلى حيث وجدتك يا صديقى العزيز » .

فى الأسر

[وكأنما نحسه قد بدأ فتوالت النكبات والهزائم . ورضى أن يذهب إلى جزيرة إلبا ليقضى بقيـة حياته . ولكن طموحه إلى الغزو والسيادة دفعه إلى محاولة الهروب من الجزيرة والعودة إلى أرض الوطن ليجرب حظه مرة أخيرة ، فكانت موقعة واترلو ، التى عاد منها محطماً مهزوماً . ويبين لنا هـذا الباب كيف وقع فى أسر أعدائه بعد الهزيمة المنكرة] .

« دعونى وحدى ! »

فاه نابليون بهاتين الكلمتين إذ عاد إلى قصر الأليزيه عقب انسحابه من ساحة واترلو التى أفل فيها نجمه إلى الأبد . وكان وصوله بعد منتصف الليل بقليل . وكان فى انتظاره عند باب القصر بعض خدمه المخلصين ، وصديقه الحميم كولينكورت . وكان الإعياء بادياً بوضوح على وجهه الذى أضناه التعب والسهر والسفر الطويل ؛ وفيما هو يصعد درجات السلم ، خانته ساقاه ، وكاد يسقط ، لولا أن أمسك صديقه بذراعه . وكان هذا الرجل الذى دوخ العالم مطأطىء الرأس ، غائر العينين ، مهدل الثياب ، يتمتم بعبارات الأسى والحزن على ما صار إليه أمره وأمر جنوده وقواده البواسل ، حتى إذا ما وصل



أشلاء واترلو

إلى أول مقعد صادفه ارتمى عليه ، وتنهد بحرقة ، وقال فى تضرع لمن حوله :

« دعونى وحدى » .

و بعد أن استراح قليلاً قام إلى الحمام ، وأزال عن جسمه آثار المعركة ، ثم ارتمى على فراشه محاولا النوم دون جدوى . وأخيراً استدعى صديقه كولينكورت ، وأخذ يتحدث معه فى هدوء ممزوج بالحزن قائلاً :

« إن الضربة التى أصابتنى فى واترلو قاتلة بلا ريب ، ولا أمل لى فى النهوض بعدها . لقد كان مشروعى يرمى إلى منع اتصال الجيشين المعادين ، وكدت أنجح لولا أن خاننى الوغد بورمونت وانضم إلى الأعداء فى آخر لحظة ، يا للخائن الوغد ! إن دم فرنسا كلها يقع على رأسه ، وسوف تحل عليه اللعنة إلى الأبد ! أما جروشى فقد تأخر فى الوصول إلى نجدتى ، ولا أدرى إذا كان ذلك بدافع الخيانة أيضاً » .

و بعد أن سكت قليلاً استطرد قائلاً :

« سوف أدعو المجلسين إلى اجتماع أصف لأعضائهما فيه بكل أمانة ودقة تفاصيل النكبة وأسبابها ، وأناشدهم القيام بمحاولة أخرى لإنقاذ الوطن فإذا استجابوا دعوتى حملت على الأعداء حملة أرجو الله أن يوفقنى فيها » .

***

وساد الفزع والهلع فى باريس . وأخذت الأخبار ترد بتقدم قوات بلوخر وولنجتون نحو العاصمة الفرنسية ؛ وانتهز أعداء نابليون السياسيون فى داخل البلاد فرصة انحطاط القوى النفسية عند الشعب فأخذوا يذيعون أن نابليون هو أسّ البلاء ، وأن الحرب القائمة هى حرب أعلنها الحلفاء ضد نابليون ، وليست ضد فرنسا ؛ فإذا نبذت فرنسا نابليون وأقصته ، نجت من أهوال حرب طاحنة تسيل فيها الدماء بغير حساب . وأخذ هؤلاء الدسّاسون يناشدون بنى وطنهم أن يخلعوه ويختاروا إمبراطوراً جديداً ، أو يؤسّسوا جمهورية تنقذهم من الوهدة التى أرداهم فيها نابليون .

واجتمع المجلسان ، فكانت أغلبية الآراء فى غير مصلحة نابليون ، الذى استنتج من تفاصيل المناقشات التى وصلت إليه أن تنازله عن العرش أصبح محتماً .

وعندما وصله قرار المجلسين النهائى بمطالبته بالتنازل عن العرش قال لمن حوله فى حزن :

« لقد ضاع كل شىء ؛ سوف يملى الحلفاء علينا شروطهم وتقع البلاد تحت رحمتهم . وكل ذلك بسبب هذه الغلطة الشائنة التى ارتكبها النواب والشيوخ بقرارهم عزلى . ماذا يظن هؤلاء السُّذج البلهاء ! إنّ فى إمكانى حل المجلسين والتخلص من مضايقة أعضائهما ولكن لا ! لن أضحى بعد الآن بفرنسى واحد فى سبيل تحقيق مطامعى »

وهكذا انقضى يوم ٢١ يونيو فى مناقشات حادة بمجلسى البرلمان ومجلس الوزراء . وأوى نابليون إلى فراشه فى آخر الليل سقيماً مضعضع القوى . وسهرت باريس معه طول الليل فلم تنم حتى الصباح بل قامت فيها المظاهرات الحماسية ، وطالب الشعب بالسلاح ليحمى إمبراطوره المحبوب ، ولكن ماذا تجدى حماسة الشعب وقد قرر ممثلوه عزل الإمبراطور ؟

وبزغ فجر ٢٢ يونيو و بونابرت لم يزل فى مخدعه، و بينا هو كذلك دخل الغرفة صبى يحمل طعام الإفطار ، ولم يتنبه نابليون إلى وجوده فى أول الأمر ، لولا أن الصبى تجرأ وقال مخاطباً مولاه :

« هلا تفضل مولاى بتناول بعض ما أحضرته له ، فإن الغذاء منبه للذهن ومجدد للقوى » .

فنظر إليه نابليون بعطف وحزن عميقين وقال له :

« ما أسعدك أيها الصغير ، إننى أعلم أنك ريفى ساذج ، لقد أخبرتنى قبلاً أن والدك يمتلك كوخاً صغيراً و بعض الأفدنة فى بيرفيت. أليس كذلك ؟ » .

فأجاب الصغير فى احترام : « نعم يا مولاى » .

فتنهد الإمبراطور وقال : هناك السعادة الحقة ! »

* * *

وأخذت الحوادث تتتابع بسرعة خلال النهار ؛ وتسلم الإمبراطور

صيغة قرار أعضاء المجلسين الذى يناشدونه فيه أن يتنازل عن العرش خدمة لفرنسا التى أحبها وأحبته . وقابل نابليون المندوب الذى سلمه القرار بكل رقة ولطف ، ووعده بجواب سريع عاجل . ثم أخذيذرع الغرفة مملياً على سكرتيره نداء للأمة الفرنسية يعلن فيه تنازله عن العرش . ومما جاء فيه : « إن حياتى السياسية قد انتهت إلى الأبد . وأنادى بابنى نابليون الثانى إمبراطوراً على فرنسا ، وآمل أن يوفق المجلسان بسرعة فى تعيين الأوصياء على العرش ، حتى تتحد الأمة تحت لواء ملكها الجديد ، وتحافظ على كيانها واستقلالها . وأرجو من كل قلبى أن يثبت الحلفاء ما ردّدوه كثيراً من أن كرههم ونقمتهم منصبّان على شخصى ، وأنهم لا يضمرون لفرنسا إلا كل خير .

***

وفى المساء أوى الإمبراطور إلى مخدعه ، وكان مضاء ببعض الشموع ، وكان الضوء ضئيلاً مما بعث الهدوء والطمأنينة فى قلب نابليون . و بزغ فجر ٢٣ يونيو فبدأت معه فترة من أحرج الفترات فى تاريخ فرنسا ؟ فقد كانت جيوش الحلفاء تتقدم بسرعة نحو العاصمة بينما كانت البلاد بلا حاكم ولا حكومة . وقضى الإمبراطور يومه بقصر الاليزيه كأى مواطن عادى ، مجرداً من السلطان . وأخذ يجاذب من حوله أطراف الحديث . ولما سأله أحد أفراد حاشيته

عما ينوى عمله ، أجاب بدون مبالاة : « لم أقرر بعدُ ما أنوى عمله ، وإنى أتساءل : ما الذى يمنعنى من البقاء هنا ؟ لماذا لا أعيش فى معزل عن الناس يحيط بى بعض الأصدقاء الذين أخلصوا لعرشى لا لسطوتى ؟ وإذا رفضوا السماح لى بالبقاء فى أرض الوطن فإلى أين أذهب ؟ لا أظن أن وجودى فى انجلترا أمر مرغوب فيه . إذاً فلتكن أمريكا مقصدى ، حيث يمكننى أن أعيش فى هدوء محتفظاً بكرامتى . . »

وازدادت رغبة الإمبراطور فى الإسراع بالرحيل ، فأرسل إلى الحكومة يطلب منها أن تُعِدّ له بارجتين حربيتين ليرحل بهما عن البلاد ، وطلب من فوشيه أن يتوسط لدى الحلفاء ليمنحوه أمان المرور إلى الشاطىء حيث يغادر البلاد . ولكن الدوق ولنجتون رفض هذا الطلب ، وأمر بتشديد الرقابة على الشاطىء حتى يحول دون هربه .

وفى ليل ٢٧ يونيو أوعز فوشيه وأعوانه إلى بونابرت أن الباخرتين اللتين طلبهما موجودتان فى ميناء روشفور فى انتظار أوامره ، وأن عليه أن يذهب إلى هذا الميناء لينتظر الفرصة السانحة للإبحار بسلام . ولم يكن ذلك إمعاناً فى الإخلاص من فوشيه ، ولكن خوفاً من أن يضع الإمبراطور نفسه مرة أخرى فى ساعة يأس على رأس الأمة الفرنسية ، فتبدأ المتاعب من جديد .

وفى هذه الأثناء استولى الحلفاء على كامبيين ، وهى على مسيرة يومين من باريس . فحاول نابليون أن يلهب الشعور فى قلب القائمين بالحكم إذ ذاك ، مظهراً استعداده لقيادة الجيش من جديد ، وكاد ينجح فى مسعاه لولا أن عارض فوشيه قائلاً : إن وجود نابليون على رأس الجيش يوغر صدور الحلفاء من جديد ، ويجعلهم يتشددون فى حملتهم وفى شروط الهدنة والصلح . وكان بلوخر وولنجتون أثناء ذلك واثقين من النصر النهائى . فأخذت جيوشهما تتوغل فى الأراضى الفرنسية دون انتظام ، بحيث كان من السهل على نابليون أن يردهم على أعقابهم إذا جمع جيشاً قوياً ، ألهبت صدور جنوده رغبة ملحة فى محو عار موقعة واترلو . وفعلا ارتدى ثياب المعركة وأعد له جواده على باب القصر ، وجمع أركان حربه ، ولم يبق إلا موافقة القائمين بالأمر ليمتشق الحسام من جديد . وبينما هو كذلك إذا برسول يحمل إليه جواب الحكومة برفض اقتراحه هذا ، فعلّق على هذا القرار بقوله : « حسناً . سوف يندمون على ما فعلوا . . . » ثم أمر بإعداد معدات الرحيل إلى الشاطىء .

وكان ينتظره عند باب القصر بعض أصدقائه الأوفياء الذين صمموا على مشاركته فى محنته حتى النهاية ، مثل الكونت برتران وزوجته وأولاده ، والكونت مونتولون وزوجته وولده ، ولاس كاساس وولده . وركب الجميع العربات المجهزة بالجياد المطهمة قاصدين

ميناء روشفور الذى يبعد عن باريس حوالى الثلاثمائة ميل . وكان أصدقاؤه قد حسبوا حساب أى محاولة لاغتياله فجهزوا أنفسهم بالسلاح والذخيرة . وفى الساعات الأولى من الرحلة لم ينبس أحد منهم ببنت شفة احتراماً لصمته وحزنه .

* * *

وصل الركب فى الساعة العاشرة مساء إلى رامبوييه حيث قضى الجميع ليلتهم ، ثم استؤنفت الرحلة فى صباح ٣٠ يونيو ؛ وبعد ثلاث ساعات وصلوا إلى شاتودان حيث استقبلتهم صاحبة الفندق سائلة فى لهفة — دون أن تعلم شخصية ضيوفها — عن مقدار الصحة فى الإشاعة التى ذاعت أخيراً عن اغتيال الإمبراطور . ولكنها لم تكد تلمحه حتى عرفته فى الحال ، فرفعت عينيها إلى السماء ضامة يديها إلى صدرها ، ثم انفجرت باكية كأنها تشكر العناية الإلهية على حمايتها لمن عبدته وقدّسته . وتأثر نابليون حتى اغرورقت عيناه بالدموع ، وربت على كتفيها شاكراً لها مهدئاً روعها .

أخيراً وصل الركب إلى ميناء روشفور حيث كانت الباخرتان الحربيتان اللتان أوصى بهما الإمبراطور راسيتين فى الميناء . وكان فوشيه قد أوعز إلى الأسطول الإنجليزى أن يشدد الحصار على الشاطىء الفرنسى حتى يحول دون فرار نابليون .

وفى الساعة الرابعة من مساء يوم ٨ يوليو ركب قارباً صغيراً

حمله إلى البارجة الفرنسية (سال) حيث قضى يومى ٩ و ١٠ يوليو ينتظر عبثاً صدور الأمر إلى البوارج الإنجليزية للسماح له بالمرور. ولما طال انتظاره أوفد شخصين من حاشيته هما الدوق روفيجو ولاس كاساس إلى قائد الأسطول الإنجليزى ليستفهما منه عن سبب تأخر التصريح للامبراطور بالسفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية. فأخبرهما الكابتن ميتلند، قائد البارجة بلليروفون أن لديه أوامر صريحة بأسر أى باخرة تحاول اختراق نطاق الأسطول المحاصر، وأنه سيتصل على كل حال بالقائد العام للأسطول ليرى إذا كانت لديه أى تعليمات أخرى.

وعند ما بلغ نابليون هذا الجواب فكر قليلا ثم أعلن عزمه على بدء رحلته فى الحال ورغم كل عائق، وأمر الدوق روفيجو أن يصدر أمراً باسم الإمبراطور إلى قائد السفينة ليبحر فى الحال. وما كان أشد دهشته عند ما أجابه الكابتن فيليبرت أن لديه أوامر من الحكومة الفرنسية أن لا يحاول الإبحار إذا وجد فى ذلك أى تعريض للسفينة للخطر. وعندها صاح الدوق غاضباً: « إن فى الأمر خدعة. إن الحكومة تتآمر على تسليم الإمبراطور للأعداء ».

ولما سمع نابليون بذلك قال: « طالما حدثتنى نفسى بالتشكك فى حقيقة هذا الكابتن الذى كانت ظواهره تدل على عكس ما يبطن. ولكن هناك دائماً الوغد فوشيه وراء الستار ».



فى الساعة السادسة من صباح يوم ١٥ يوليو ١٨١٥ ترك الشاطىء الفرنسى للمرة الأخيرة واستقل قارباً نقله إلى ظهر السفينة الإنجليزية بالليريفون . ويرى وقد رفع يده اليمنى مودعاً أحد أنصاره الذى وقف مطأطىء الرأس خاشعاً . وقد أبحرت السفينة فى اليوم التالى إلى انجلترا

وفى أثناء هذه المحنة القاسية تقدم قائد الباخرة الدانيماركية (بايادير) — وكانت راسية فى الميناء — إلى نابليون عارضاً عليه حمايته ، مؤكداً له أن فى إمكانه الهرب به من نطاق الحصار ، وأخبره أنه قد أعد له مخبأ سريًا فى سفينته ، لن يتوصل العدو إلى اكتشافه . ولكن الإمبراطور رفض هذا العرض فى أدب وظرف ، وفضل البقاء أسيراً على أن يترك رفقاءه تحت رحمة أعدائه فى داخل البلاد وخارجها .

وكان شقيقه جوزيف بونابرت يشبهه شبهاً كبيراً ، فعرض عليه أن يحل محله و يتسلل نابليون بدله إلى بوردو حيث أعدت كل المعدات للرحيل إلى الولايات المتحدة . ولكن الإمبراطور رفض بشدة أن يضحى بأخيه ، وشكره على جميل عواطفه .

واقترح البعض عليه أن يعود إلى فرنسا و يبدأ الحرب من جديد ، فرفض ذلك أيضاً مفضلا الموت والأسر على الزج بأمته فى أتون حرب أهلية . وآثر الانتظار ريثما يصل إليه جواب القائد الإنجليزى .

***

أرسل الإمبراطور مندوبيه مرة ثانية إلى الكابتن ميتلند يوم ١٤ يوليو ، فأبلغهما أن الأوامر صدرت إليه بأن يستقبل الإمبراطور على ظهر البارجة بلليروفون إذا رغب السفر إلى انجلترا .

وأنه لذلك يضع سفينته تحت تصرفه . ولما بلغ نابليون هذا القرار أخذ يتشاور مع أصدقائه فيما يجب عمله ، فانحازت أغلبية الآراء إلى الرأى القائل بأن يضع الإمبراطور ثقته فى الشرف البريطانى ويسلم نفسه للإنجليز . ولم يشذ عن هذا القرار إلا اثنان هما الكونت مونتولون والجنرال جورجود ، فإنهما حذراه من الوثوق بوعود الحكومة الإنجليزية مهما كان واثقاً من عطف وكرم ضيافة الشعب الإنجليزى .

وأخيراً تناول الإمبراطور قلماً وقرطاساً وكتب إلى جورج الرابع ملك انجلترا الخطاب التالى .

« رغبة منى فى تجنب سفك الدماء ، وإزاء تألب جميع القوى لهدمى ، وجدت أن أقوم سبيل هو إنهاء حياتى السياسية واللجوء إلى انجلترا لأتمتع بدفء نار الموقد الإنجليزى العتيد ، ولأضع نفسى تحت حماية القانون الإنجليزى العادل » .

وكانت الساعة إذ ذاك الرابعة بعد الظهر ، فأوفد لاسكاساس وجورجود إلى البارجة بلليروفون ليعلنا قائدها أن الإمبراطور سوف يصل إلى ظهرها فى اليوم التالى .

وعهد إلى جورجود أيضاً بإيصال الخطاب المرسل إلى جورج الرابع ، وطلب منه أن يحاول تسليمه بنفسه إلى يدى الملك . ثم قال له :

« إذا سئلت عن البلاد التى أفضل النزوح إليها ، فليكن الاختيار الأول الولايات المتحدة الأمريكية . وإذا رفضوا ذلك فإنى أفضل البقاء فى انجلترا نفسها ، حيث يمكننى قضاء بقية حياتى فى ريفها الجميل على بعد عشرة أو اثنى عشر ميلا من لندن متنكراً تحت اسم الكولونيل مويرون أو دوروك ، وسأختار لسكناى بيتاً كبيراً يكون فيه متسع لجميع أفراد حاشيتى وزوجاتهم وأولادهم .

وسُمح للجنرال جورجود بالسفر إلى انجلترا ولكن لم يسمح له بالنزول إلى البر ، وأُرسل الخطاب الذى يحمله إلى بلاط سان جيمس على يد رسول خاص .

وفى أثناء ذلك دخل الجنرال الفرنسى بيكر إلى غرفة الإمبراطور فى البارجة ، وأخبره أنه وصل إلى علمه أن البوربون أرسلوا بعض الضباط للقبض عليه ؛ فلما سمع بذلك ارتدى ملابسه بسرعة واستعد للرحيل عند بزوغ الفجر ، إذ ركب قارباً صغيراً حمله إلى البارجة الإنجليزية بلليروفون تصحبه حاشية من ضباط وسيدات وأطفال وخدم بلغ مجموعهم ٥٩ شخصاً .

ولما وصل نابليون إلى السفينة استقبله الكابتن ميتلند قائدها وبقية الضباط استقبالاً يليق بمقامه . وحالما وضع قدمه على ظهر السفينة خاطب قائدها قائلا :

« إننى أتيت إلى سفينتك لأضع نفسى تحت حماية القانون الإنجليزى » .

فانحنى القائد باحترام وتأثر . وصحب الإمبراطور إلى غرفة أعدت له ، ثم قدم له جميع ضباط الباخرة .

وأقلعت السفينة قاصدة انجلترا . و بينما هى سائرة فى طريقها أوقفتها سفينة انجليزية أخرى تحمل اسم (سو برب) وطلب قائدها أن يسمح له بالمثول بين يدى الإمبراطور ليبدى له احتراماته وليرجو منه قبول دعوته لتناول الإفطار على ظهر سفينته . وقد قبل نابليون الدعوة واستقبل هناك استقبالا رسميا حافلا ، ولما عرض عليه قائدها أن يمضى بقية الرحلة فى بارجته لتوفر وسائل الراحة عنده أكثر من البارجة بليروفون ، رفض فى تأدب وظرف قائلا :

« إننى أخاف إن فعلت ذلك أن أوذى شعور الكابتن ميتلند الذى لم ألاق منه حتى الآن إلا كل رقة وأدب فى المعاملة . ولا أجد سبيلا لرد جميله إلا البقاء ببارجته حتى نهاية الرحلة ، عسى أن يؤدى ذلك إلى ترقيته لرتبة أعلى » .

***

واستغرقت الرحلة إلى الشاطىء البريطانى حوالى تسعة أيام ، لأن الرياح كانت شديدة والأمواج متلاطمة ؛ وقد سر الإمبراطور كثيراً من الرحلة ، وكان يقضى معظم الوقت بين ضباط البارجة

وبحارتها ، مظهراً إعجابه بنظامهم وهندامهم . وقد قال ذات مرة :
« إن النظام والهدوء اللذين يسودان البحارة يدعو إلى الإعجاب العظيم ! إنك لا تسمع على ظهر الباخرة الفرنسية إلا كل ضوضاء وشوشرة دونها أصوات الأوز ونقيق الضفادع ! »

وقد أزالت المعاملة الحسنة التى لقيها على ظهر السفينة شكوك الإمبراطور فى نيات انكلترا نحوه . وكان كلما اقترب من الشاطىء الإنجليزى ازدادت طمأنينته وتضاعف حب الضباط والبحارة له . وكانوا ينادونه بمولاى أو صاحب الجلالة . وكلما سار على ظهر السفينة خلعوا قبعاتهم بكل احترام وإجلال .

وفى الساعة التاسعة من صباح ٢٥ يوليو ألقت الباخرة مرساها فى ميناء (توربای) . وما كاد يذيع خبر وصولها حتى احتشدت فى الميناء مئات القوارب حاملة رجالا ونساء من جميع الطبقات ، وقد أتوا ليفوزوا بنظرة إلى الرجل الذى ملأ العالم إعجاباً . وقد خرج الإمبراطور إلى ظهر الباخرة مراراً ، وكانت النساء تلوحن بمناديلهن فى كل مرة ظهر فيها .

وفى مساء ٢٥ يوليو استؤنفت الرحلة ، ورست السفينة بميناء بليموث فى ظهر اليوم التالى . وفى الحال أدرك الإمبراطور أن فى الجو شيئاً غير عادى . إذ لاحظ تغييراً ظاهراً فى نفسية الكابتن ميتلند ، الذى بدا حزيناً مفكراً على غير عادته . وأحيطت السفينة بسياج

من القوارب لمنع أى شخص من الاقتراب من السفينة أو النزول منها بدون إذن خاص من أميرال الأسطول . وكان الميناء محتشداً بمئات القوارب . والشاطئ مكتظاً بالآلاف الذين أتوا من مسافات بعيدة ليلقوا نظرة على الأسير العظيم . وكانوا يحيونه بالهتافات وتلويح المناديل ، كلما شاهدوه على ظهر السفينة .

وفى مساء ٣٠ يوليو صعد إلى ظهر السفينة السير هنرى بانبورى والأميرال كيث وقرأ أحدهما على الإمبراطور القرار الآتى :

« إن واجب الحكومة الانجليزية إزاء نفسها وحلفائها أن تقوم بمنع الجنرال بونابرت من القيام فى المستقبل بأى عمل يؤثر على السلم العالمى . ولذلك تقرر إرساله إلى جزيرة سانت هيلانه حيث يمضى بقية حياته . وقد يحب الجنرال أن يعلم أن جو الجزيرة صحى ، وموقعها البعيد سيساعده على التمتع بحرية التجول فى أنحائها دون أن يكون هناك خطر على حياته » .

وترك له الاختيار لاصطحاب طبيب وثلاثة ضباط واثنى عشر خادماً يعاملون كأسرى حرب طول مدة إقامتهم معـه ؛ وقد كلف السير جورج كوكبورن باصطحاب الإمبراطور ، ونبـه عليه أن ينادى نابليون بلقب (چنرال) وليس كصاحب جلالة أو امبراطور .

أصغى نابليون إلى هذا القرار بهدوء ووقار دون أن تظهر عليه علامات التأثر . حتى إذا ما انتهى من سماعه قال بكبرياء : « إننى

ضيف انجلترا ولست أسيرها . لقد أتيت من تلقاء نفسى لأحتمى بالقانون الإنجليزى العادل الذى داست عليه حكومتكم بفعلتها هذه . إننى أحتج بشدة ، وأناشد مرة ثانية الشرف الإنجليزى » .

ولما انصرف المندوبان التفت نابليون إلى من حوله وقال : « سانت هيلانه ! لا أصدق أن هذه الجزيرة النائية الشديدة الحرارة سوف تصبح مأواى الأخير . ياليتهم سلمونى إلى البوربون أو سجنونى فى برج لندن أو فى إحدى قلاع انجلترا الحصينة . إنهم يريدون التخلص منى بسرعة ، فجسمى لا يتحمل جواً مريعاً كجو جزيرة سانت هيلانه ، ثم إنهم ينادوننى بلقب جنرال . حسناً ! ليكن لقبى كبير أساقفة إذا شاءوا ، فإننى بحكم مركزى كامبراطور كنت رئيس الجيش والكنيسة معاً ! » .

ولم تلبث سحب الكآبة أن تلاشت عن وجه نابليون ، وعاد إليه سروره وحبوره ومرحه ، وأخذ يمزح مع أصدقائه ، واقترح أن يقضى الجميع وقتهم فى المنفى فى كتابة مذكراتهم وتاريخ حياتهم .

* * *

وازداد عطف الشعب الإنجليزى على الأسير العظيم ، فتطوعت اثنتان من كبريات الصحف للدفاع عنه . وتجمع أفراد الشعب كل يوم على الشاطئ وفى القوارب ، وكانوا يهتفون له كلما لمحوه على ظهر السفينة . وهو يجيب عليهم بتلويح قبعته المشهورة . وتشجع نابليون

إذ رأى وشعر بهذا العطف الشديد من أفراد الشعب ، فكتب — بناء على اقتراح محاميه الإنجليزى — الاحتجاج التالى إلى الحكومة الإنجليزية :

« إننى أحتج بشدة على هـذا الاعتداء الصارخ على حريتى وشخصى . لقد أتيت إليكم بمحض إرادتى لأكون ضيفكم لا أسيركم ، لقد كانت ثقتى كبيرة فى عدالة القانون الإنجليزى . فحذار من حكم التاريخ الذى سوف يتكلم عن غدركم بعدو حاربكم عشرين عاماً ثم سلم نفسه مختاراً فى ساعة محنة وانكسار . فإذا بكم تغدرون به وتستغلون ضعفه وتجرده من سلاحه » .

الباخرة بليروفون — فى ٤ أغطس ١٨١٥ الإمضاء

نابليون

وفى اليوم التالى أعلن نابليون إلى قائد السفينة أسماء الذين وقع عليهم اختياره لمرافقته فى الرحلة ، وهم المرشال برتران ، والكونت مونتولون ، والكونت لاس كاساس ؛ وإزاء تصميم الجنرال جورجود على مرافقة مولاه سمحت له الحكومة بالسفر أيضاً .

وفى مساء ٧ أغسطس صعد إلى ظهر السفينة (بليروفون) كل من الأميرال كيث والأميرال كوكبورن ، وكانت تبدو عليهما أمارات الارتباك والخجل . وأخيراً تشجع الأميرال كيث وقال للإمبراطور فى صوت خافت : إن لديه أوامر من حكومته بتفتيش

حقائبه وكذلك حقائب زملائه ، ومصادرة كل أموال يعثرون عليها حتى لا يستخدمها (الجنرال) فى محاولة الهرب من منفاه . وستحتفظ الحكومة بهذه الأموال حتى وفاته . و بعدها تنتقل بكل أمانة إلى الأشخاص الذين يختارهم فى وصيته .

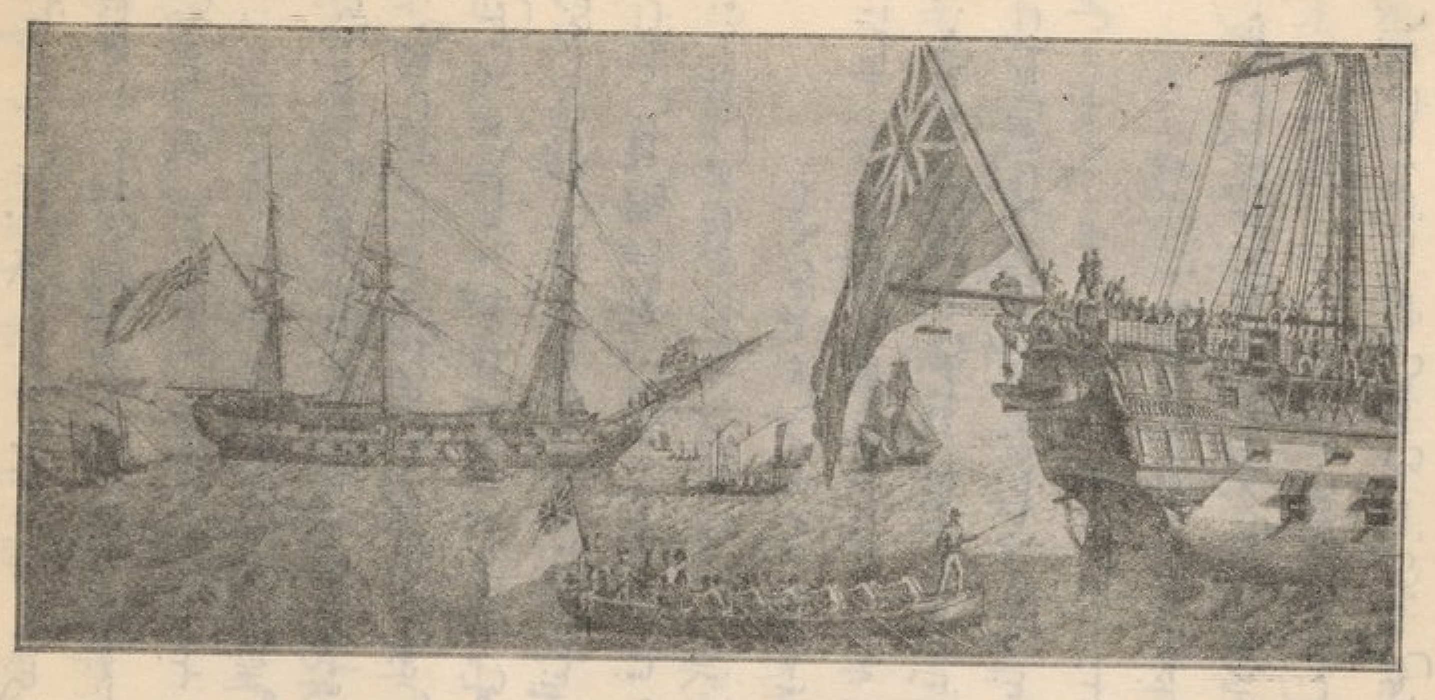
وقد قام الأميرال كوكبورن بمهمة تفتيش الحقائب . وقد أجرى فحصه بكل دقة ولم تسلم منه حتى الملابس الداخليـة وثياب النوم . وقد عثر على حوالى مائة ألف فرنك ذهباً ، فصادرها إلا مبلغ اثنى عشر ألف فرنك تركها فى عهدة خادمه الخاص مارشان ليستعين بها نابليون فى نفقاته الخاصة . ولم يجرؤ الأميرال على تفتيش جيوب الإمبراطور والملابس التى يلبسها ، وبذلك سلمت من المصادرة مجوهرات وحوالات مالية قيمتها أربعة ملايين فرنك .

وكان نابليون فى أثناء ذلك واقفاً فى غرفته ينظر من الشباك مفكراً حزيناً ، وبجانبه رفقاؤه خاشعين سا كنين احتراماً لحزنه . وإذ هم فى هذا الموقف الرهيب دخل عليهم اللورد كيث وقال بصوت يرتعد من شدة الخجل والاضطراب .

« إن انجلترا تطلب سيفك أيها الجنرال بونابرت » .

فأفاق الإمبراطور من ذهوله ونظر إلى اللورد نظرة فاحصة جعلته يطأطىء رأسه الأشيب خجلاً .

ولما وضع نابليون يده على مقبض سيفه لتسليمه ، غلب التأثر



فى عصر يوم ٧ أغسطس انتقل نابليون إلى السفينة نورثمبرلاند التى حملته إلى المنفى السحيق
ويرى واقفاً فى قارب يرفرف عليه العلم البريطانى

على اللورد ، فانسحب نحو الباب قبل أن ينهى مهمته ، وعندها ذكره سكرتيره الذى يرافقه أن أوامر الحكومة صريحة فى وجوب الحصول على سيف الجنرال ، فنظر إليه اللورد غاضباً وقال بحدة :

« ليس هذا من شأنك » .

ولما دنت ساعة انتقاله إلى السفينة الحربية نورثمبرلاند ـ وهى التى اختيرت لتنقله إلى منفاه ـ ودع قائد السفينة بلليروفون وضباطها وداعاً مؤثراً ، شاكراً لهم ما لقيه من حسن المعاملة . ثم تقدم نحو سلم السفينة ؛ وقبل أن يغادرها انحنى ثلاثاً للبحارة الذين تجمعوا لتوديعه ولما ركب القارب الذى أقله إلى السفينة نورثمبرلاند ظل واقفاً برهة ، انحنى فى أثنائها مرة للضباط وأخرى للبحارة ، ثم جلس هادئاً وأخذ يتحدث مع اللورد كيث حتى وصل القارب إلى الباخرة ولما صعد إلى ظهرها استقبل استقبالاً رسمياً من البحارة ، يليق بمقامه كقائد عظيم . و بعد أن شكرهم جميعاً بكلمات رقيقة ، استأذن فى الدخول إلى مخدعه .

وهكذا أقلعت السفينة فى يوم ٩ أغسطس سنة ١٨١٥ تحمل أسيرها العظيم ومعه حاشيته المكونة من الكونت والكونتس مونتولون وابنهما ، والكونت والكونتس برتران وأطفالهما الثلاثة ، والبارون جورجود ، والكونت لاس كاساس ، والدكتور أوميرا . وكانت تحرسها عشر سفن حربية .

و بينما أخذت السفينة تتحرك وقف الإمبراطور على ظهرها ينظر إلى الأفق البعيد ، عله يلقى نظرة أخيرة على فرنسا المحبوبة . وفجأة ارتفعت السحب وظهرت سواحل فرنسا عن بعد ، فنظر الإمبراطور فى صمت وخشوع إلى الأرض التى عاش وحارب من أجلها . ثم رفع قبعته وانحنى للأرض النائية . وهتف من قلبه قائلا :

« وداعاً يا فرنسا . . . وداعاً يا أرض الشجعان ! » .

على فراش الموت

[ووصل أخيراً إلى الصخرة النائية بعد رحلة طويلة شاقة . وقاسى ما قاسى من الهول والمذلة والهوان حتى رحمه ملاك الموت فاختطفه . والآن أقرأ وأتخذ من المأساة موعظة]

قلنا إن السفينة التى تقل نابليون إلى منفاه أخذت تتحرك فى تؤده ، بينما وقف الأسير العظيم على ظهرها ينظر إلى الأفق البعيد ، عله يلقى نظرة أخيرة على فرنسا المحبوبة التى عاش وحارب من أجلها وفجأة ارتفعت السحب وظهرت سواحل فرنسا على بعد ، فرفع نابليون قبعته وانحنى للأرض النائية وهتف من قلبه قائلا : « وداعاً يا فرنسا . وداعاً يا أرض الشجعان » .

شاهد الضباط الإنجليز هذا المشهد المؤثر ، وسمعوا صيحة نابليون الصادرة من قلب مفعم بالإخلاص وحب الوطن ، فخلعوا قبعاتهم وأحنوا رؤوسهم فى تأثر عظيم مشاطرين أسيرهم الممتاز عاطفته وحزنه .

وسرعان ما تمالك نابليون شعوره وسار فى هدوء وثبات إلى قمرته بالباخرة ، وبقى فيها حتى الساعة الرابعة بعد الظهر يقرأ تارة ويتحدث تارة أخرى إلى من يستدعيه من أفراد حاشيته ، ثم ارتدى ملابس العشاء وخرج إلى غرفة التدخين حيث قضى نصف ساعة

يلعب الشطرنج . وفى الساعة الخامسة تماماً دخل قائد السفينة ودعا الإمبراطور لتناول العشاء . وقضى الجميع أكثر من ساعة بين أكل وشراب وسمر وحديث تناول موضوعات عامة .

واستمر هذا النظام طول الرحلة ، ولم يكن من عادة نابليون الجلوس إلى مائدة الطعام أكثر من عشر دقائق ، ولكنه اضطر — مراعاة لمن معه — أن يبقى معهم طول مدة تناول الطعام ، وكانت تتجاوز أحياناً الساعتين . وكان خادماه الخاصان يقفان خلفه ليقوما بخدمته . وكان نابليون يأكل القليل من الطعام الذى يقدم إليه ، ولا يرفض أى صنف منه ، كما لم تكن عادته أن يظهر استحساناً أو اشمئزازاً من ألوان الطعام التى توضع أمامه .

واعتاد نابليون أن يسير على ظهر السفينة بعد العشاء مدة ساعة أو أكثر فى صحبة أصدقائه ، وفى أثناء هذه الساعات ينسى نابليون حاضره ويتحدث عن ماضيه سارداً على رفاقه فى صراحة وبساطة ، ما صادفه فى تاريخه الحافل من محن وانتصارات ، ودسائس وانكسارات .

وكان على ظهر السفينة مدفع اعتاد نابليون أن يجلس عليه بعد جولته اليومية على ظهر الباخرة فيجتمع حوله كل من أنس إليه من البحارة والضباط ، وقد يبقى معهم ساعات محدثاً إياهم فى بساطة وديموقراطية . وسمى هذا المدفع فيما بعد : « مدفع الإمبراطور » .

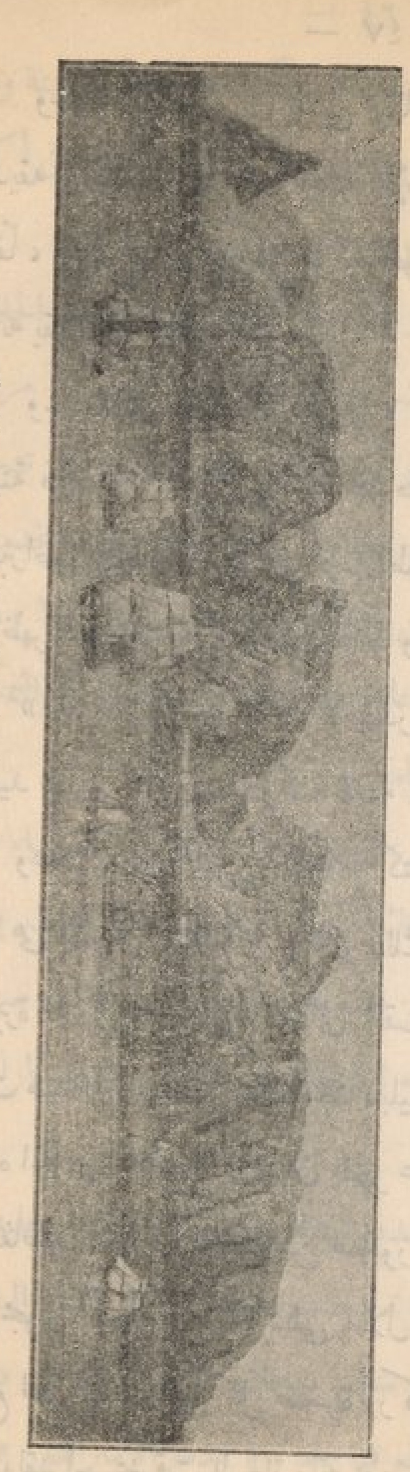
وخطر لنابليون أن يتسلى بإملاء مذكراته على لاس كاساس صديقه ، فكان إذا حان وقت الإملاء يفكر هنيهة ، ثم ينتصب واقفاً ، ويذرع الغرفة وهو يذكر الحوادث مفصلة بتواريخها ومكانها وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح .

وحدث فى يوم ٧ اكتوبر ، أن قابل الأسطول الإنجليزى سفينة فرنسية فانتقل إليها أحد ضباط الباخرة نورثمبرلاند التى تقل الإمبراطور وأخبر قائدها أن الإمبراطور فى طريقه إلى سانت هيلانه على ظهر النورثمبرلاند ، فدهش القائد وهز رأسه فى يأس ظاهر وقال :

« لقد انتزعتم منا كنزاً لا يقدر بثمن ، وحرمتمونا من الحاكم الوحيد الذى كان يفهمنا وكنا نفهمه » .

وعند غروب شمس يوم ١٥ اكتوبر صاح أحد البحارة قائلا : « ها هى الأرض أخيراً » وكان ذلك إيذاناً بقرب الوصول إلى الجزيرة . وفى ظهر اليوم التالى ألقت الباخرة مرساها فى ميناء سانت هيلانه ، وعند ذلك أخذ نابليون ينظر خلال منظاره متأملا هذه الجزيرة القاحلة دون أن يظهر على وجهه أى تغيير فرأى عن بعد تفاصيل الجزيرة البشعة من صخور وتلال بلغت أعنة السحاب ، ولمح مجرى كبيراً من الماء يمشى خلال الجزيرة ، ولفتت نظره كثرة المدافع التى نصبت على كل صخرة وركن من الجزيرة .

ولقد استغرقت الرحلة مائة يوم منذ رحيل الأمبراطور من



فى يوم ١٥ أكتوبر ١٨١٥ وصلت الفاتقة البحرية إلى الصخرة القاحلة

فرنسا ، وسبعين يوماً بعد إبحاره من انجلترا . وتبعد الجزيرة عن أوربا ستة آلاف ميل ، وهى فى ذاتها صغيرة تبلغ عشرة أميال طولا وستة عرضاً ، ويحيط بها سور عال من الصخر به ثلاثة منافذ هى الطرق الوحيدة للوصول إلى داخل الجزيرة ، وقد أحكم تحصينها حتى لا يتسنى لأى مخلوق الهروب بغير علم الحرس المنبثين فى أنحاء هذه الصخرة النائية .

وفى عصر يوم ١٦ أكتوبر تأهب الإمبراطور للنزول إلى سجنه الأبدى ، وأرسل فى طلب القائد ليشكره على ما لقيه أثناء الرحلة من حسن المعاملة وتوفر أسباب الراحة ،

وقف الأميرال كوكيورن الذى رافقه فى الرحلة يشرح له تفاصيل الجزيرة حال وصوله إلى جيمس تاون ويرى إلى جانب الإمبراطور بعض أفراد الحاشـــية

وسأله أن يبلغ تحياته إلى جميع الضباط والبحارة الذين تجمعوا على ظهر الباخرة ليودعوه الوداع الأخير ، وكانت عيون أغلبهم مغرورقة بالدموع . وكان الموقف أشبه بجنازة الميت ، وساد نفس السكون الرهيب الذى يخيم على المشيعين عند ما نزل نابليون إلى القارب الذى أقله إلى سجنه وقبره .

وعند ما وصل إلى الجزيرة كانت الشمس قد غابت وراء الأفق . ومشى الأمبراطور فى شارع حقير بقرية جيمس تاون ، قاده إلى غرفة متواضعة رثة اختيرت ليقضى فيها مدة ريثما يتم إعداد منزل له ، وكان بها سرير حديدى بسيط فى مظهره ، عليه مرتبة ووسادة ، وفى أركانها بعض قطع الأثاث التى لا تليق بمقام الضيف العظيم ، ووقف عند بابها وعند نوافذها حرس مدجج بالسلاح .

رأى نابليون كل ذلك ، فارتمى على كرسى قريب منه ، وأخذ يفكر فى هدوء وحزن ثم رفع رأسه فى تثاقل وأمر جميع من بالغرفة بالخروج ، ثم أطفأ الأنوار وارتمى على فراشه يلتمس الراحة والسلوان فى الوحدة القاتلة ، وراح يفكر ويفكر . . .

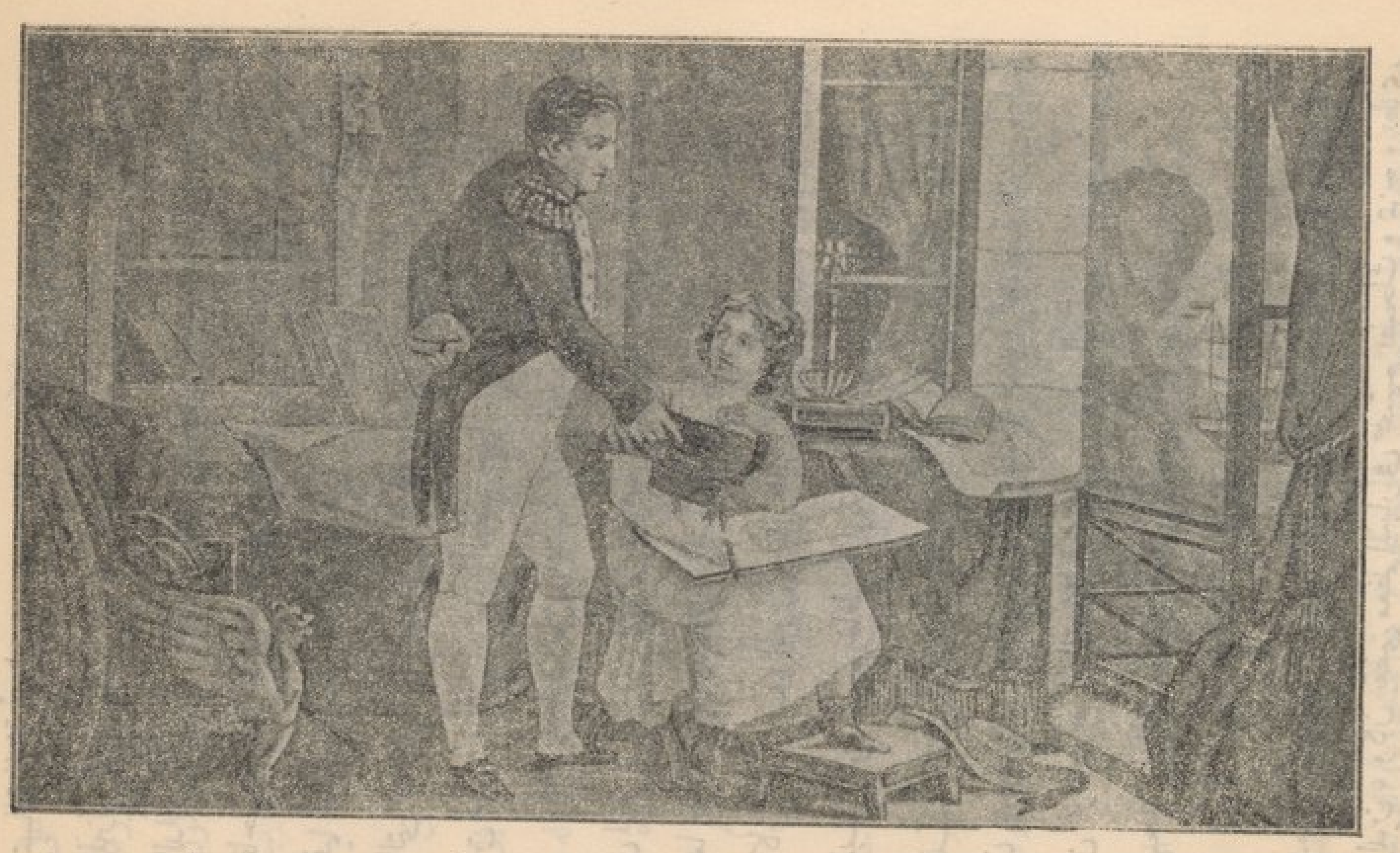
وهكذا قضى نابليون الليلة الأولى فى المنفى ، ولا يعلم إلا الله ماذا جال بخاطره خلالها . . !

وفى الساعة السادسة من صباح اليوم التالى ، امتطى صهوة جواد فى صحبة بعض رفقائه وسار الجميع نحو قرية (لونجوود) التى تبعد

بمسافة ثلاثة أميال عن جيمس تاون ، وكان الغرض من الرحلة معاينة المنزل الذى اختارته الحكومة الإنجليزية ليكون مقام الإمبراطور الدائم بالجزيرة . ولشد ما دهش نابليون عندما رأى بقعة جرداء قاحلة يتخللها مجرى ماء صغير ويقوم فى وسطها كوخ حقير كان فيما مضى يستعمل كزريبة للبقر ، ثم أجريت فيه بعض الإصلاحات التى جعلته صالحاً للسكنى ، وكانت ميزته الوحيدة أنه يقع فى مكان من الجزيرة أقل حرارة وألطف جوا .

عاد نابليون من رحلته محطم النفس كسير الفؤاد ، وإذ هو فى الطريق شاهد منزلا ريفيا صغيراً فى بقعة اسمها « البرير » فسأل عما إذا كان فى الإمكان الإقامة فيه حتى يتم إعداد منزله فى (لونجوود)، وكان يملك هذا المنزل رجل طيب القلب يدعى مستر بالكومب ، فقبل عن طيب خاطر أن يترك إحدى غرف منزله — المكون من خمس غرف — خصيصاً للإمبراطور . ولكن هذا رفض أن يضايقه ، وفضل أن يشغل ملحقاً صغيراً بحديقة المنزل مكوناً من غرفتين تعلو إحداهما الأخرى ، وهناك قضى نابليون شهرين يصحبه مارشان خادمه الخاص ولاس كاساس وولده .

وكانت هذه الإقامة أسعد فترة قضاها نابليون فى منفاه . واندمج اندماجاً كليا مع عائلة المستر بالكومب المكونة من زوجته وبنتين وولدين ، وكان يقضى معظم النهار فى صحبتهم يضحك ويمزح ويطرى

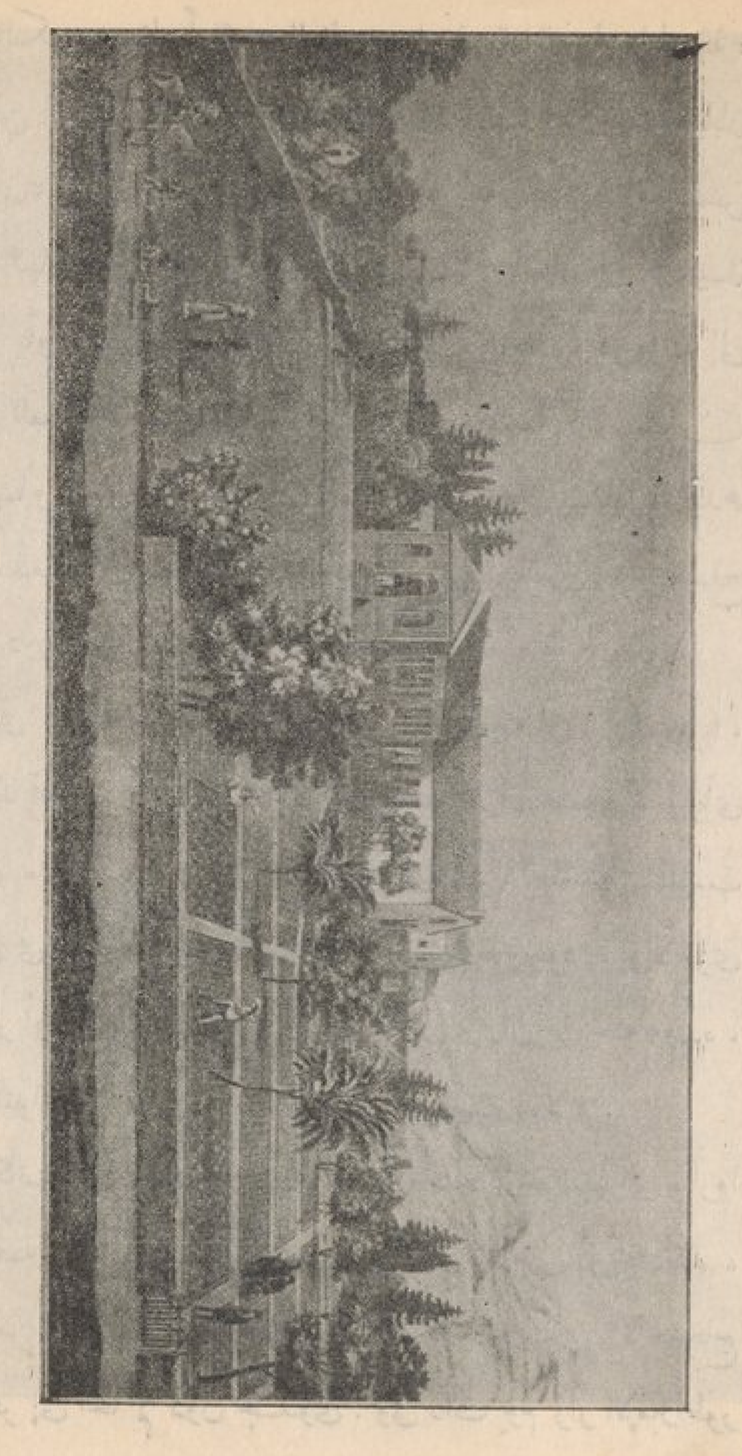


نابليون يتحدث إلى بتسى بالكومب أثناء ضيافة عائلتها له ريثما يتم إعداد المسكن المناسب لإقامته فى لونجوود

مسز بالكومب مظهراً إعجابه العظيم بجميل تنسيقها للمنزل والحديقة ، فإذا جن الليل عاد إلى غرفته بسيطة الأثاث ، وكان لها بابان ونافذتان ، ولم يكن للنوافذ ضلف خشبية ولا ستائر تحجز ضوء الشمس أثناء النهار ، وكان لاس كاساس يحكم إغلاق النافذتين كل ليلة بعد أن يأوى مولاه إلى فراشه ، ثم ينسحب فى هدوء هو وابنه إلى الطابق العلوى ، أما مارشان والخادم الآخر فإنهما كانا يلتفان بعباءتيهما و ينامان على عتبة باب الغرفة التى قدر أن يشغلها سيدهم الذي خدماه إبان سطوته وسلطانه ، وكان يحيط بالمنزل حرس مسلح ليحول دون هروب الأسير .

وفى ١٠ ديسمبر ، انتقل الإمبراطور وحاشيته إلى (لونجوود) ، وكان قد تم إعداد سجنه المكون من بضع غرف صغيرة ، ورأى نابليون بعد فحصها أنها لا تكفى لإيواء جميع أفراد حاشيته . فنصب خيمتين فى حوش المنزل إحداهما للجنرال جورجود ، والأخرى للدكتور أوميرا طبيبه الخاص . أما الجنرال برتران وزوجته وولده ، فقد سكنوا منزلا صغيراً على مسيرة ميل من بيت مولاهم .

وكانت الرقابة شديدة على الأسرى ، فكان يحرسهم أنى ساروا جنود يحملون بنادقهم ، وحرم عليهم الاتصال بالأهالى أو محادثتهم ، ومنعوا من الدنو من شاطىء الجزيرة . وكانوا يرسلون الاحتجاج تلو الآخر إلى الحاكم دون جدوى . وفى ذات يوم زار الإمبراطور



منزل نابليون وحاشيته بلونجوود . وقد أقام فيه ابتداء من ١٠ ديسمبر سنة ١٨١٥

قائد إحدى السفن التى صحبته إلى منفاه ، وكان على وشك الرحيل إلى أوروبا ، وسأله عما إذا كان فى إمكانه أن يؤدى له أى خدمة ، فتدفقت عبارات الاحتجاج من فم نابليون على المعاملة السيئة التى يلقاها هو وحاشيته من أولى الأمر بالجزيرة ، ورجاه أن يبلغ الوزراء الانجليز شديد احتجاجه وعتابه ، وأملى على لاس كاساس مذكرة جاء فيها ما يأتى :

« إن الأمبراطور يرجو أن يسمع برجوع البريد أخباراً عن زوجته وابنه ويريد أن يتأكد إذا كان هذا الأخير لا زال على قيد الحياة . وهو ينتهز هذه الفرصة ليسجل شديد احتجاجه على المعاملة الشاذة التى يلقاها .

« ولقد وضع الأمبراطور نفسه بمحض إرادته تحت حماية القانون الانجليزى وكان فى إمكانه أن يحتمى بملك آخر كالأمبراطور فرانسوا والد زوجته مارى لويز ولكنه وضع كل ثقته بدون تبصر فى عدالة الأمة الانجليزية فكان ما كان .

« إن الإمبراطور ليس أسير حرب كما تزعمون ، وإذا سلمنا بهذا الأمر فإن لأسير الحرب حقوقاً ثابتة عند جميع دول العالم المتمدينة ، ويطلق سراحه بمجرد انتهاء الحرب .

« إذا كان وزراء انجلترا مصممين على استمرار هذه المعاملة الشاذة ، فإن الأمبراطور يكون سعيداً لو أصدروا حكما بإعدامه فى

الحال ، فالموت أحب إليه من حياة هى الجحيم بعينه » .

وكان نابليون فى ثورة غضبه يملى على أفراد حاشيته احتجاجات شديدة اللهجة ليحملوها إلى الحاكم ، فيؤجلوا إرسالها بضعة أيام حتى تهدأ ثورته . ثم يسألونه إذا كان مصمما على احتجاجه فيثور فى مبدأ الأمر لعدم إطاعتهم أوامره ثم لا يلبث أن يعود إليه هدوءه فيقول « أنتم محقون . إن مركزى وكرامتى يحتمان على الصمت والصبر ، ويجب أن أترك أمر الاحتجاج لكم وحدكم » .

وحاول نابليون أن يكتب خطاباً خاصاً إلى الملك جورج الرابع وأرسل إلى حاكم الجزيرة يستأذنه على لسان الجنرال برتران . فأصر الحاكم على أن يقرأ الخطاب قبل إرساله ، فرأى نابليون أن ذلك محط لكرامته ، فعدل عن الفكرة .

وفى ١٧ أبريل سنة ١٨١٦ ، وصل حاكم الجزيرة الجديد السير هدسن لو ، ولما قدم إلى الأمبراطور اشمأز من منظره ، وقال بعد انصرافه :

« إن شكله ووجهه يبعثان القشعريرة فى نفسى ، ولكن يجب أن لا نتسرع فى الحكم ، فقد تكون أخلاقه بعكس ما ينبىء عنه وجهه البشع » .

ولم يصدق حدث نابليون هذه المرة ، فإنه لاقى على يدى هذا الحاكم أهوالا نفسية جعلت حياته جحيما لا يطاق ، وعجلت بنهايته



نابليون وهو جالس على صخرة فى الجزيرة يملى مذكراته

المحزنة على يدى شخص قاس وضع نصب عينيه الانتقام للامبراطورية البريطانية ممن دوخها عشرين عاماً طوالا . وكانت أيامه الأخيرة سلسلة من الأحزان والنكبات النفسية .

* * *

ومرت الأعوام وحالة الأمبراطور النفسية والمرضية تزيد سوءاً يوماً بعد يوم وخاصة بعد وصول الحاكم الجديد .

وكانت تقارير شهرى نوفمبر وديسمبر من عام ١٨١٨ مليئة بتفاصيل تحوى صنوف العــذاب والآلام والمذلة . وبلغ اليأس بالإمبراطور مبلغاً عظيما حتى إنه رضخ أخيراً فى اليوم العاشر من شهر يناير عام ١٨١٩ لمشورة أصـدقائه أن يزوره الدكتور ستوكا جراح البارجة الإنجليزية (كونكرر أى القاهر) . وكان نابليون قد صمم ألا يرى طبيباً إنجليزياً منذ أن أمر الحاكم بترحيل طبيبه الخاص أوميرا . فلما ناظره الدكتو ستوكا وجده فى أشد حالات الألم وانحطاط القوى الجسمية . وقد زاره مرتين فقط وجد نفسـه بعدهما مضطراً لطلب إعفائه من عمله لأن الحاكم وحاشيته كانوا يتدخلون فى عمله تدخلا أقلقه وأزعجه . فزار الإمبراطور فى يوم ٢١ يناير وبرر له اضطراره إلى الإنسحاب وأصبح نابليون مرة ثانية دون طبيب يعنى به ويشرف على حالته الصحية .

ومضت التسعة الأشهر التالية فى عذاب مستمر ولم يأل حاكم

الجزيرة جهداً فى أن ينغص على المريض حياته لدرجة أن نابليون أمر بأن يحكم إغلاق الأبواب ولا يسمح لأى شخص من طرف الحاكم أن يزوره . وقد كتب الإمبراطور عن هذا فى مذكراته ما يأتى :

« فى يوم ١١و١٢و١٣و١٤و١٦ من شهر أغسطس عام ١٨١٩ حاول بعضهم أن يقتحم دارى للمرة الأولى منذ مجيئى إلى الجزيرة . ولقد أصدرت أوامرى بغلق جميع الأبواب و إحكام قفلها . ولقد سبق أن أنذرت أولى الأمر أن انتهاك هذه الحرمة الضيقة المكونة من ست غرف صغيرة لن يتم إلا إذا ساروا على جثتى . لقد مضى على عامان وأنا أقاسى من مرض الكبد المتفشى فى هذه الجزيرة . وقد استبعد الدكتور أوميرا فى يوليو عام ١٨١٨ والدكتور ستوكا فى شهر يناير ١٨١٩ ومنذ ذاك الوقت وأنا أقاسى أبشع الآلام دون أن يكون على مقربة منى طبيب يداوينى ويخفف من آلامى . و بينما أتقلب على فراشى من شدة آلام الأزمة الكبدية الأخيرة التى مضيت عليها ستة أيام وليال دون تراخ أو هوادة إذا بي أفاجأ بهذا التدخل الذى لا معنى له والذى يتنافى مع أبسط قواعد الإنسانية » .

وأخيراً وافقت الحكومة البريطانية على أن يرسل أصدقاء بونابرت فى أوروبا طبيباً من قبلهم ، ووقع اختيارهم على الدكتور انتومارکی الذى وصل إلى الجزيرة فى يوم ١٩ سبتمبر من العام نفسه .

وقدجاء معه اثنان من رجال الكنيسة لأن نابليون ألحّ أن تقام الصلوات والمراسم الدينية فى مملكته الصغيرة بالجزيرة. وكان أحدهما وهو الأب نونافيتا متقدماً فى السن بينما كان الآخر وهو الأب فيجنالى شاباً فى مقتبل العمر. وكانت للإمبراطور معهم صولات وجولات فى السياسة والدين مما روح عن نفسه المكروبة وواساه فى محنته.

وفى ٢١ سبتمبر استقبل نابليون طبيبه الجديد للمرة الأولى، وكان ذلك فى الساعة الثانية والربع، وعندما دخل الطبيب الغرفة وجدها مظلمة وكان المريض راقداً على سرير فى أحد أركان غرفة حقيرة الأثاث فلم يره فى مبدأ الأمر لولا أنه سمع صوتاً خافتاً رقيقاً يناديه ويدعوه للجلوس. ثم أخذ نابليون يسأله بدقة عن مولده وعائلته ومؤهلاته الطبية والدوافع التى جعلته يقبل المجىء إلى هذه الصخرة النائية ثم أخذ يسأله عن أخبار أصدقائه القدماء فى أوروبا.

وفى اليوم التالى عاد الطبيب مريضه حوالى العاشرة صباحاً. وكان الإمبراطور لا يزال ملازماً فراشه بعد أن مضى ليلة حافلة بالآلام والأوجاع. وبينما هما يتجاذبان أطراف الحديث وقفت عربة بباب المنزل، وكانت محملة بالصناديق والكتب الواردة للإمبراطور من الخارج. ولما أمر بفتحها وجدها مليئة بالكتب والمجلدات فنظر إليها بونابرت نظرة فاحصة وقال لمن حوله « ليست الكتب هى الشىء الوحيد الذى يبحث عنه والد فى رسالة واردة من الخارج.

أنظروا داخل الصندوق وافحصوه جيداً فلا بد أن هناك شيئاً آخر أحب إلى قلبي من كل هذا . . » وقد صدق حدس الإمبراطور لأنهم وجدوا صورة لابنه بين الكتب ، فما رآها حتى انهارت الدموع من عينيه ونظر إليها طويلا ثم قبلها بحرقة وشوق وقال وهو يبكى : « ولدى العزيز ! ستكون خير خلف لوالدك إذا قسم لك أن تعيش رغم دسائس أعدائى . . . » .

وأمضى الإمبراطور ليلته ساهراً يقرأ الجرائد والمجلدات التى وردت من الخارج فلما دخل عليه الطبيب فى الصباح وجده منهكاً متعباً . وكان لا يزال ممسكاً بصورة ولده فناولها إلى طبيبه قائلا : « أرجوك أن تضعها على رفّ المدفأة بجانب صورة والدته ماريا لويزا . ألا ترى الصورتين الأخريين . . . ؟ إنهما للحبيبة جوزيفين . . . كم هى عزيزة إلى قلبى .. لكم أحببتها ولا زلت أحبها .. إن صورتها وذكراها يؤنسانى فى وحدتى المؤلمة . . ألا ترى بعينيك مظاهر العظمة والأبهة التى تحيط بى فى هذا الركن الحقير . . . ! شمعدانان بسيطان . . فنجانان مُذَهَّبَان . . مقصّ صغير . . كوبة ماء . . . زجاجتان من ماء الكولونيا . . . سرير حديدى . . . هذا كل ما خرجت به من عظمة الماضى . . أين هذا من قصور التويلرى والأليزيه . . . ولكن كل هذا يهون عندما أتذكر أن ما أضحيه ليس إلا حباً فى فرنسا وأهلها . . » .

وعند ما جال الطبيب ببصره فى الغرفة لاحظ آثار الرطوبة الشديدة على جدرانها لدرجة أتلفت جميع الأبسطة المزركشة التى غطيت بها الجدران . وكان مرسوماً على أحدها صورة نسر كبير فنظر إليه نابليون وقال وهو يبتسم فى مرارة : « أيها النسر العزيز . كان خليقاً بك أن تظل محلّقاً فى الفضاء الواسع ، لولا أن الذين ظلّلتهم بجناحيك خذلوك ونتفوا ريشك . . » .

ومرت الأيام ومضت أربع سنوات وآلام بونابرت فى ازدياد ، وبدأ سنته الخامسة وهو يشعر بضعف جسمى وانحطاط معنوى شديدين . وفى يوم ١٨ نوفمبر شعر بانتعاش على غير عادة رغم ضعفه وبينما هو يمشى مع طبيبه فى حديقته الصغيرة التفت إليه فجأة وقال : « بماذا تشير على يا طبيبى العزيز . أما من وسيلة ألجأ إليها لأبعث النشاط إلى أطراف جسمى . . » فأجابه الطبيب « يا حبذا لو حاولت ممارسة أى نوع من الرياضة . ما رأى جلالتكم فى حرث الأرض وتعهد هذا البستان الصغير بنفسك ؟ » فظهرت علامات السرور على وجه نابليون وصاح قائلا : « يا لها من فكرة صائبة . سوف أبدأ من باكر . . »

وفى صباح اليوم التالى أرسل فى طلب طبيبه وقابله عند باب المنزل والفأس فى يده وقال له وهو يضحك : « هاهو مريضك يطيع أوامرك وينفذها حرفيا ودون تردد . إننى أعتقد أن الفأس والمعول

خير من أقراصك وأدويتك المقيئة التى لن أعود إليها ثانية .. » ثم بدأ يحرث الأرض بهمة سرعان ما تخاذلت بعد دقائق والتفت إلى الطبيب وقال : « إنها عمليـة شاقة حقا — أراك تضحك منى ولـكن مهلا يا عزيزى فسوف أروض نفسى وسترى أنى سأحذق هـذه الرياضة الجديدة عما قريب .. »

وسرعان ما اعتاد جسم الإمبراطور ويداه الناعمتان الرياضـة الجديدة وأشرك معه فى العمل جميع رجال حاشيته ورفضت السيدات القيام بنصيبهن رغم إلحاحه وإغرائه . وتحولت الحديقة الجرداء إلى بستان منسق . . فهنا حوض . وهناك قناة . . وزرعت الأشـجار حول المنزل لتعكس عليه ظلها وترطب من حرارته المرهقة . . وسمع الحاكم بمجهودات أسيره فى سبيل رفاهيـة لونجوود فحام حول المنزل وشاهد الطبيب واقفاً وحده فى الحديقة فناداه فى احتراس وقال له : « هل أنت الذى أشار على الجنرال بونابرت بالقيام بهـذا المجهود الشاق ؟ » فأجاب الطبيب « نعم » فهز الحاكم كتفيه وقال : « إنه مجهود ضائع . ألا تعلم أن كل هذه الشجيرات سوف تموت . ولن تنمو واحدة منها مهما بذلتم من جهود » . ثم انصرف ولما قص الطبيب تفاصيل الحديث على نابليون صاح هذا قائلا : « يا للوغد .. ألا يريد أن يتركنى وحدى دقيقة واحدة . إننى أعرف أنه يتمنى موتى وينتظره بفارغ الصبر . ولقد طالت حياتى لدرجة أزعجته وأقلقته . .

ولكن ليقر عيناً فهذا الجو الخانق سوف يقضى علىّ عاجلا .. وعندها يستريح بال سجانى العزيز .. » .

وأراد الإمبراطور ذات يوم عقب هذا الحادث أن يسخر من سجانه فأوعز إلى الأب فيجنالى أن يرتدى إحدى حُلله ويمتطى صهوة جواده ويمسك بمنظاره ويتجول بحصانه متظاهراً بأنه يستكشف ما حول منطقة الحرام ، وسرعان ما قامت الدنيا وقعدت وجاء الحاكم مسرعاً إلى لونجوود ولما وجد أنه لا معنى للضجة القائمة انسحب فى هدوء وقال للطبيب وهو ينصرف : قل للجنرال إننى فهمت النكتة وإننى لن أقبلها مرة ثانية « فلما سمع الإمبراطور بذلك ضحك وقال : الواقع أننا ضايقناه كثيراً بهذه المداعبة . إننى أرثى له » .

٢٢ اكتوبر سنة ١٨٢٠ : ها قد مضت على الإمبراطور خمس سنوات وهو يعانى الآلام القاسية فى منفاه النائى بسانت هيلانه حيث تمر الأيام والأسابيع ببطء قاس ، ليس أقسى منه إلا الزوابع والضباب والأعاصير التى لا تنقطع معظم أيام السنة .

شعر الإمبراطور بتحسن قليل فى صحته ، فنادى طبيبه الخاص الدكتور انتوماركى* وقال له ، « إنى أعاهدك يادكتور متى من الله

(*) جاء انتوماركى إلى الجزيرة موفداً من قبل والدة الإمبراطور وأصدقائه فى أوروبا بعد أن عزل حاكم الجزيرة طبيبه الخاص اوميرا لأنه أبى أن يكون جاسوساً له . ولما أمر بترحيله عام ١٨١٨ رفض نابليون أن يتعاون مع أى طبيب من قبل الحاكم وفضل أن يتحمل الآلام الهائلة التى كان يقاسيها على أن =

على بالشفاء ، أن أرسلك إلى أوروبا لتتم أبحاثك ودراساتك ، فحرام على أن أربط مستقبلك بمستقبلى وأدعك تقضى حياتك على هـذه الصخرة المشئومة . لقد أخبرتنى على ما أذكر أنك لم تر فرنسا بعد ، فإذا أتيحت لك الفرصة ، فإنك سترى هناك التماثيل التى غمرت بها أحياء فرنسا أيام سطوتى وسلطانى . آه لقد مضت هذه الفترة كوميض البرق ، ولـكنى أعتقد أنى فعلت فيها أشياء نافعة ، فلقد خلدت الثورة الفرنسية فى القانون الذى وضعته والذى سيكون نبراساً تهتدى به الأجيـال القادمة ، ودخلت إيطاليا فوجدت أن مواصلاتها مع باريس شاقة متعبة ، فشققت طريقاً فى وادى الرون تطلب نفقات ومشاق هائلة ، إذكان علينا أن نخترق طبقات صلبـة من الجرانيت تردد أمامها الرومان القدماء عن تنفيذ هذا المشروع » .

وهنا شعر الإمبراطور بوهن فسكت عن الـكلام .

٢٦ أكتوبر : قام الإمبراطور من مقعده رغم ضعفه وأخذ يسير فى بطء نحو حوض صغير بناه بنفسه ، وأخـذ يتسلى بمراقبة أسماك صغيرة حمراء اللون وهى تلعب فى المـاء ، وكان يرمى لهـا قطعاً صغيرة من الخبز ويبتسم فى تثاقل لرؤيتها وهى تلتهم الخبز فى نشاط عجيب ،

= يكشف عليه طبيب يعينه سجانه . وكان الحاكم يقول : « إذا كان نابليون يرفض مناظرة أطبائى فذلك لأنه متمارض يخشى أن تنكشف حيلته »

وقد أحسن الحاكم استقبال انتومارکي فى زيارته الأولى ومضي معه وقتاً طويلا حاول فيه إقناعه أن مرض بونابرت لم يكن إلا خدعة وتمثيلا . .



صورة نابليون أخذت فى ٢٤ يوليو ١٨٢٠ رسمها ضابط إنجليزى

وكأنها أعادت لذاكرته أيام سطوته ونشاطه حينما كان جذوة دائمة الاتقاد . وفجأة لاحظ أن بعضها ميت والبعض الآخر كسول على غير عادة ، فنظر إليها أسفاً وقال : « ألا ترون أن كل ما أحب يسبقنى إلى مصير أنا إليه سائر . إن ملاك الموت أو شيطانه قد أنس إلى هذا المكان ، وها هو يسلى نفسه بقتل الحشرات والأسماك قبل أن يسطو على الرأس الكبير » . وأخذ الإمبراطور منذ ذلك الحين يتردد يومياً

ليطمئن على أصدقائه الصغار ويلح على طبيبه ، ليكشف سر موتهم الفجائى . وفكر الطبيب فى تحليل الماء ، ولكن الإمبراطور وجد أن هذا إجراء بطىء لا يسعف . وكان يرغمه على الذهاب عدة مرات فى اليوم ليرى إذا كانت الأسماك بخير . وأخذ الطبيب يقدح زناد فكره ، عله يتوصل إلى اكتشاف يشفى به غليل الإمبراطور . وأخيراً وجد أن المادة التى استعملت فى بناء قاع الحوض تحتوى على نسبة كبيرة من النحاس ، كانت كافية ليتسمم بها السمك . وفى الحال نقلت الأسماك الحية إلى برميل من الخشب ، فكان ذلك سبباً فى إنقاذ البقية الباقية من السمك الذى صار هوية من كان ينازل الأبطال ويداعب بالسيف والنار .

١٩ نوفمبر : كان نوم الإمبراطور مضطرباً فى الأيام الأخيرة وكان ألم الكبد يعاوده كل ساعة ، وكانت قواه قد انحطت ونشاطه قد غادره . فأخذ يناجى طبيبه قائلا : « ما ألذ الراحة ياطبيبى العزيز إن رفاهية الفراش دونها أى عرش فى الوجود . إيه ، ما أعظم التغيير الذى طرأ على نفسى وعقلى وتفكيرى ! أيستطيب الفراش والراحة من كان مثال النشاط ومن كان تمضى عليه ليال بأكملها لا يغمض له فيها جفن . . . بل يفكر ويفكر . . . ويعمل ويعمل . . . ولطالما أمليت أوامرى على أربعة أو خمسة أشخاص مختلفين فى وقت واحد ولكنى كنت إذ ذاك نابليون بونابرت ، أما الآن فإننى لا شىء

لقد غادرتنى قواى ومواهبى وأعصابى ، وأصبحت الحياة أياماً تقضى لا عمل فيها ولا أمل . . . بالله ياطبيبى العزيز لا تلح على فى أخذ الدواء فقد غلب الداء ولن يغلب » .



الدكتور انتومار كى الطبيب الخاص لنابليون فى المنفى

١٦ ديسمبر : اشتد ضعف الإمبراطور ، وفى الصباح عقب ليل قضاه فى ألم مستمر حاول مغادرة الفراش ، ولكن قواه خانته فارتمى على مقعد قريب وأخذ يتمتم قائلا « حتى رجلاى تخوناني ! رباه ماذا بقى منى إذن ؟ هيكل عظمى بلا حركة ولا تفكير ! حقاً إن لكل شىء نهاية . . . وها هى نهايتى تقترب ، وعلام آسف ولم يبق لى فى الحياة غاية ، ولم يعد لبقائى فى الدنيا فائدة ؟ » .

وازدادت الحالة الصحية سوءاً خلال شهرى يناير وفبراير

سنة ١٨٢١ وأخذت الأيام تمر كالسنين أو قل كالأجيال طولاً. فالألم والمرض المستمران على حالهما والضباب والزوابع والأمطار لاتنقطع. وقد حل بنابليون يأس شديد وخاصة عند ما قرأ فى الجرائد عن وفاة شقيقته إليزا.

٢٩ مارس سنة ١٨٢١. أخذت النهاية تقترب والإمبراطور ينتظرها باطمئنان وثبات عجيبين. وفى ذلك اليوم خاطب طبيبه قائلا: « إننى أرفع راية العصيان فى وجه كل من يحاول إرغامى على تعاطى أى دواء. إننى شخص طالما واجه الموت بلا خوف وتعرض لأشد الأخطار هولا، ولكن ليس أبغض إلى نفسى من أن تمس شفتى كأس الدواء؛ لعلك تقول عنى فى نفسك أننى طفل مدلل... لكن » ثم التفت إلى مدام برتران وقال: « خبرينى بربك كيف تطاوعك نفسك على ابتلاع الحبوب والأدوية العديدة التى يصفها لك طبيبنا طيب القلب؟ » فأجابت: « إننى أتناولها لأن أوامر الطبيب مقدسة ويجب إطاعتها، وإنى أنصح جلالتك أن تحذو حذوى ». فهز رأسه فى ضعف وقال: إننى إذن الوحيد بينكم الذى يثور فى وجه الطب والطبيب. سوف أطيعك يا مدام برتران وأتناول الدواء» قال هذا ثم تناول الفنجان والتهم الجرعة دفعة واحدة. (*)

(*) أكثر أنتومارکی من وصف المقيئات والمسهلات حتى نفذ صبر نابليون منها. وفى ذات يوم اقترح وضع حراقة على منطقة الكبد سببت للامبراطور=

٣١ مارس : كان حاكم الجزيرة السير هدسون لو قد كلف أحد الضباط أن يقدم إليه تقريراً يومياً ، بأنه رأى (الجنرال بونابرت) كما كان يسميه ، إمعاناً فى الإذلال وتجاهلا لعظمة ماضى هذا الأسير الكبير . وقد قام الضابط بواجبه منذ وطئت قدما نابليون أرض الجزيرة ، وقد لازم الإمبراطور فراشه منذ ١٧ مارس ولم تشأ عواطف الضابط الرقيقة أن ترغمه على إطاعة أمر رئيسه ، واقتحام غرفة المحتضر العظيم ليقدم تقريره اليومى بأنه رأى (الجنرال بونابرت) . فهاج السير هدسون وماج ، وسار تتبعه حاشيته إلى منزل بونابرت ، وأخذ يحوم مزمجراً مهدداً الضابط بأقسى أنواع العقاب إذا لم ينفذ الأوامر الصادرة إليه . فذهب الضابط إلى الجنرال مونتولون ، وسأله أن يساعده فى محنته دون أن يكون فى ذلك إيذاء لعواطف الإمبراطور . فساعده الجنرال ، بأن جعله ينتظر فى الخارج بجوار النافذة . وفى اللحظة التى قام فيها نابليون من سريره لقضاء إحدى الحاجات مستنداً إلى ذراع طبيبه ، أزاح الستار قليلا متظاهراً بأنه ينظر إلى الخارج ، وبذلك أتاح للضابط أن يسرق نظرة إلى الغرفة المظلمة و إلى الإمبراطور ،

= ألماً شديداً فصاح فى وجهه عند زيارته له فى صباح اليوم التالى : « أنت جاهل وأنا أجهل منك لتنازلى بقبول علاجك .. ألا ترى فى تعذيب (هدسون لو) ما يكفينى » .. وكان أنتوماركى يدرك مقدار ثقة بونابرت فى كفاءته وكثيراً ما طلب مغادرة الجزيرة ثم يعود فيرضى بالبقاء حتى عين الحاكم الطبيب أرنوت وكان أكثر كفاءة وحاز ثقة نابليون لأنه قام بواجبه فى حدود المهنة والضمير والشرف . فتعاون مع أنتوماركى فى العناية بالمريض العظيم .

وأمكنه تقديم تقريره اليومى لرئيسه المتعجرف . ولكن هذا لم يرضه بل هدد بأنه إذا لم يسمح للضابط بالدخول يومياً إلى غرفة (الجنرال بونابرت) فإنه سيأتى بنفسه ومعه حاشيته و يقتحم الغرفة غير آبه بالعواقب . وعبثاً حاول الجنرال مونتولن أن يثنيه عن عزمه ، مكرراً على مسمعه الواجب الإنسانى نحو مريض يحتضر ، بغض النظر عن شخصيته . فلم يعره الحاكم أى اهتمام ، واقتحم المنزل ، ولكن الدكتور أنتوماركى كان قد سمع الضجة التى فى الخارج ، فخرج وهو ثائر على هذا الإنسان الذى قد قلبه من صخر ولما التقت عيناه بعين الحاكم صاح الأخير بكبرياء « أين الجنرال بونابرت » .

فأجاب الطبيب : « الجنرال بونابرت غير موجود هنا » .

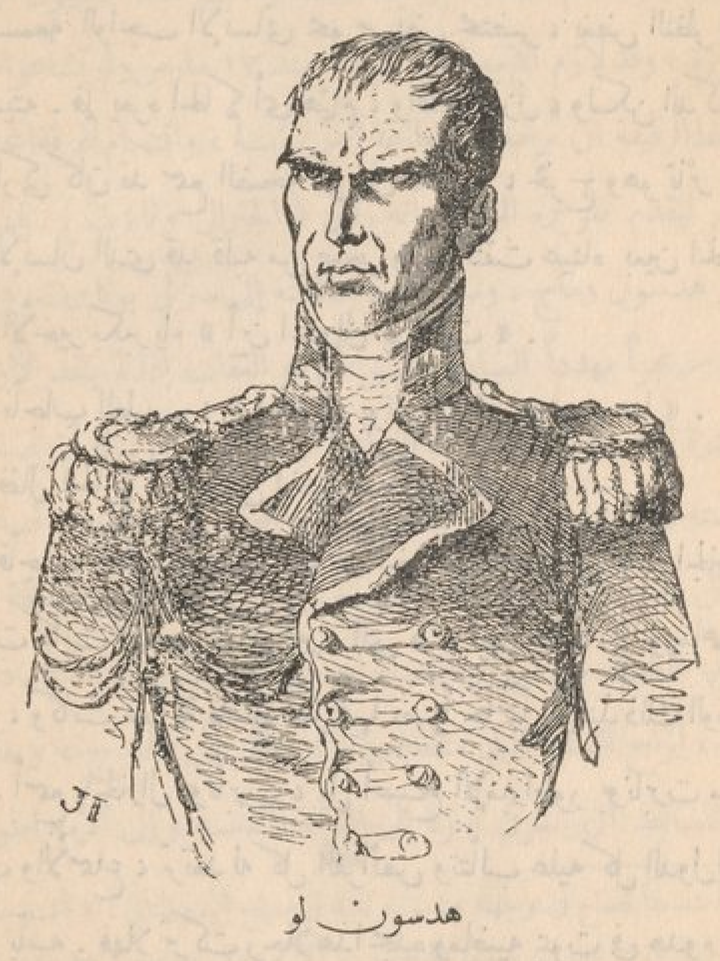
فقال الحاكم : « ومتى اختفى ، وأين ؟ »

فأجاب الطبيب بهدوء : « إن آخر مرة سمعت فيها باسم الجنرال بونابرت كانت فى معركة أبو قير ، التى هزم فيها حلفاءكم ورماهم فى البحر ، وكانت معركة فاصلة حاز فيها نصراً حاسماً . ومنذ ذلك الوقت لم أعد أسمع بالجنرال بونابرت ، بل أصبح الإمبراطور بونابرت ملء القلوب والأسماع ، ترتعد له كل الفرائص وتتألب عليه كل الدول التى تخشى بأسه . فهلا تركت رجلا هذا مجده وماضيه يموت فى هدوء ؟ »

فقال الحاكم : « أراك لا زلت تتكلم عن (الإمبراطور) »

واحتدت المناقشة بين الطبيب والحاكم ، وكاد يحدث مالا تحمد

عقباه ، لولا أن تدخل الكونت برتران ، والجنرال مونتولن ، وتوسطا لدى الإمبراطور لكى يقبل حلا وسطا ، وهو : ان يزوره يومياً من قبل الحاكم طبيب يثق فيه الطرفان وهو الدكتور أرنوت ، وهذا كان عليه أن يقدم تقريراً يومياً بدل الذى كان يقدمه الضابط .



هدسون لو

٢ أبريل : أعدت الحكومة البريطانية منزلا مريحاً للإمبراطور ليستعيض عنه بالمنزل الذى يقيم فيه . وهو منزل رطب اتخذت منه

الفيران عشا ووجدت العيش فيه سهلا وألح الدكتور أرنوت فى نقل الإمبراطور فى الحال . وكان الأخير ينصت إلى أرنوت وهو يتكلم دون أن ينبس ببنت شفة ، ولما انتهى من كلامه التفت إلى طبيبه أنتوماركى وقال : « هل ترى مثل رأيه ؟ » .

فأجاب : « كلا يا مولاى إن درجة حرارتكم مرتفعة وقد يكون لنقلكم من منزل إلى منزل أوخم العواقب » . فالتفت الإمبراطور إلى الدكتور أرنوت وقال : « ها قد سمعت بأذنيك . يجب ألا نفكر بعد الآن فيما عرضته على » ، وحاول أرنوت أن يؤثر عليه ، ولكن إلحاحه لم يؤد إلى نتيجة .

٦ أبريل : مضت عشرون يوماً منذ حلق الإمبراطور ذقنه للمرة الأخيرة وقد حاول الطبيب أن يقنعه بالسماح لأحد خدمه بأن يحلق له ذقنه ، ولكنه رفض رفضاً باتا فى أول الأمر . ولكن لما طالت لحيته بدرجة أزعجته ، بدأت قناته تلين وأفضى لطبيبه برغبته ، فاقترح هذا أن يرسلوا فى طلب حلاق ليقوم بالمهمة . ففكر الإمبراطور طويلا ثم قال : إننى دائماً كنت أحلق ذقنى بيدى ، ولم أسمح حتى الآن ليد إنسان أن تمس وجهى ، ولكننى الآن لا أقوى على عمل شىء وليس على إلا الإذعان والخضوع لما تأمر به ... ولكن ، لا لا ... لن أدعهم يقولون إننى بلغ بى الضعف والوهن حدا سمحت معه لمخلوق من البشر أن يمس وجهى ولن ينال هذا الشرف إلا أنت » .

فاحتج الطبيب بلطف ، قائلا : انه كان يتمنى أن يفعل ما يأمره به الإمبراطور ولكنه لا خبرة له مطلقاً بهذا الموضوع ، ونصح جلالته بأن يرضخ لحكم الظرف القاسي ويسمح لشخص متمرن أن يحلق له .



صورة أخذت قبل موته بشهرين

فأجاب الإمبراطور : حسناً ... ليكن ما تريد . والأمر لله » .

١٦ أبريل : أمضى الإمبراطور الصباح كله فى كتابة وصيته ، وقد ضمنها ما يأتى :

avril le 16 - 1821 Longwood — quinzième page

ceci est un codicile de mon testament

1° je desire que mes cendres reposent sur les bords de la Seine au milieu de ce peuple français que j'ai tant aimé

2° je lègue aux comtes Bertrand, Montholon et Marchand l'argent, bijoux, argenterie, porcelaine, meubles, livres, armes et généralement tout ce qui m'appartient dans l'isle de St Helene

ce codicile tout entier écrit de ma main est signé et scellé de mes armes

Napoleon

وصية نابليون مكتوبة بخط يده وممهورة بإمضائه

١ — أوصى بأن أدفن على ضفاف السين لأشعر فى آخرتى بأننى بين الشعب الفرنسى الذى أحببته من كل قلبى .

٢ — أغادر هذه الدنيا وقلبى مفعم بالحب والإعجاب بزوجتى العزيزة الإمبراطورة مارى لويز ، وأوصيها خيراً بابننا الوحيد ، وأتوسل إليها أن تحميه من جو الدسائس والمؤامرات التى يشاء القدر أن تحاك حوله منذ طفولته البريئة .

٣ — أوصى إبنى أن يذكر دائماً أنه ولد فرنسيا فيجب أن يعيش لفرنسا ويموت فى سبيلها وليذكر دائماً مبدئى الذى عملت به وهو : « كل شىء لفرنسا وللشعب الفرنسى » .

ثم أوصى بإعانات ومعاشات تعطى لجميع أصدقائه القدماء الذين لا يزالون على قيد الحياة ، وكذلك أرامل وأطفال ضباطه القدماء الذين بذلوا دماءهم فى سبيله .

ثم كتب لابنه وصية طويلة أوصاه فيها بأن لا يجعل نصب عينيه الانتقام لأبيه ، بل بالعكس نصحه بأن يتعظ بمصيره ، وأن لا يمضى فى طريق الحرب والفتوحات متشبهاً به . بل يعيش للسلام وللسلام وحده ، فإن القرن الواحد لا يحتمل حربين ، وإن أرض فرنسا مملوءة بالخيرات ، فعليه أن يستغلها لمصلحة شعبه النبيل .

ثم كتب يقول :

« لا بد وأن يتولد فى كل مكان شعور بالعطف علىّ نظراً للحالة

البائسة التى صرت إليها ، وهذا العطف هو خير ميراث أتركه لابنى إذ سينعكس عليه وسيكون عوناً له فى مستقبله ، ويقينى أن انجلترا ستساعد على رجوع ابنى إلى فرنسا لتمحو بذلك الأثر الذى تركته فى دول العالم أجمع ، نتيجه المعاملة التى ألاقيها وأقاسى من ويلاتها فى منفاى . وأنصح ابنى إذا أراد أن يعيش فى سلام ووئام مع إنجلترا بأن يراعى قبل كل شيء مصالحها التجارية . والسبيل الوحيد الذى عليه أن يسلكه هو أن يتقاسم معها تجارة العالم ، ويدخلى معها فى صلح دائم .

« إن البوربون لن يبقوا فى الحكم طويلا بعد موتى ، ولابد أن تسنح الفرصة لابنى للعودة إلى عرش أبيه ، ولكن إياه أن يعتمد على قوى أجنبية للوصول إلى هذا العرش .

« أوصيه خيراً بعائلته . أن أمى العجوز الطيبة القلب شديدة المحافظة على التقاليد وأخوى جوزيف وأوجين فى وسعهما أن يسديا إليه النصح والإرشاد .

« وإذا قدر له البقاء بالمنفى ، فعليه أن يتزوج بإحدى بنات أعمامه أو عماته . أما إذا رجع إلى العرش ، فعليه أن يتزوج بأميرة روسية ، فإن الارتباط بروسيا لمما يزيد فى نفوذ فرنسا فى الخارج » .

وختم وصيته بقوله :

« أوصى ابنى بأن يكثر من قراءة تاريخ الأمم والحروب

والفتوحات ، فالتاريخ وعظاته ودروسه أكبر فلسفة يجب أن يقتدى بها ملك . ولكن ما لم يكن فى قرارة نفسه متمتعاً بنصيب كبير من حب الخير والرغبة عن الشرور والآثام ، فإن كل فلسفات العالم والتاريخ لن تجدى قراءتها شيئاً . ولكنى أرجو من كل قلبى ، أن يهيئه الله لمستقبله الذى لا يزال فى عالم الغيب » .

٢١ أبريل : طلب الإمبراطور أن يحضر له الأب فيجنالى وقال له :

« إننى أطلب منك أيها الأب أن تقوم بالمراسيم الدينية عقب موتى وأن تصلى على روحى بالكنيسة فى حضور جمهور المصلين . وأتوسل إليك أن تضع الصليب على قلبى وأن لا تقف صلواتك حتى أوارى التراب » .

٢٥ أبريل : نام الإمبراطور فى هدوء معظم الليل وكان الكونت مونتولن جالساً بجوار سرير يراقبه . وفى الساعة الرابعة صباحاً استيقظ فجأة ، وقال وهو فى شبه ذهول :

« لقد رأيت الحبيبة جوزفين الآن ، وقد رفضت أن تضمنى إلى صدرها إذ اختفت فى اللحظة التى كنت على وشك تقبيلها فيها . . إنها لم تتغير كثيراً . . ولا تزال عيناها مملوءتين بالإخلاص والمحبة . لقد قالت لى إننا سنتقابل فى القريب العاجل . وإننا لن نفترق بعد ذلك » .

ثم غلب عليه النعاس ونام ثانية . وفى الصباح أملى على الكونت نص الخطاب الذى يبلغ به الحاكم خبر موته وهذا نصه :

« جناب الحاكم . لفظ الإمبراطور النفس الأخير فى يوم . . . الساعة . . . بعد مرض طويل قاس ، وإن لى عظيم الشرف أن أبلغكم أن الإمبراطور أوصانى أن أتصل بكم مباشرة ، للتحدث فى أمر نقل جثمانه إلى أرض الوطن ، وكذلك إرجاع رفاقه إلى وطنهم الذى ابتعدوا عنه طويلا . وإنى لا زلت خادمكم المطيع .

الإمضاء

الكونت مونتولن

٢٨ أبريل : بلغ الضعف بالإمبراطور مبلغاً عظيما وأخذ يتحدث عن موته بهدوء عجيب قائلا :

« أوصيكم أن تشرحوا جثتى بعد موتى ، ولكن عدونى أن لا يمسها طبيب إنجليزى . ولكن إذا كانت الحاجة ماسة لمساعدة أحدهم ، فإن الدكتور أرنوت هو الوحيد الذى أسمح له بذلك ، فإذا ما فتحتم صدرى فانتزعوا قلبى وضعوه فى زجاجة بها كحول « سبرتو » وارسلوها إلى بارما حيث تقطن مارى لويز وأخبروها أننى أحببتها وبقيت على عهدها طول حياتى .

« وأرجو منكم أن توجهوا عناية خاصة بمعدتى ، وتكتبوا عما تجدونه فيها تقريراً وافياً ، وترسلوه لابنى العزيز فإن هـذا القيء

المستعصى ليثير فى الشكوك . أن معدتى هى أصل البلاء . لقد مات والدى بسرطان المعدة ، وإننى أتوجس أننى مصاب بنفس المرض . ولقد انقلب الشك عندى يقيناً عند ما صار القىء مستمراً . فلا تنسوا أن تخبروا ابنى بكل مشاهدتكم عن سبب موتى ، حتى تساعدوه على تجنب هـذا الداء الوراثى ، وصفوا له الدواء اللازم لذلك ، فإذا ما عدتم إلى روما ، فعليكم بزيارة والدتى العزيزة . فإذا سألتكم عنى ، فخبروها عن كل شىء . . . عن معيشتى فى هذه الجزيرة النائية . . . عن مرضى . . . وعن موتى . فعسى أن تجد فى هـــذه التفاصيل عزاء وسلوى . . . » .

وارتمى الإمبراطور على سريره وهو منهوك القوى ، ثم راح فى سبات عميق وأخذ يتمتم بكلمات غير مفهومة .

٢ مايو : اشتدت حالة الإمبراطور وارتفعت حرارته وأخـذ يهذى مستعرضاً تاريخ حياته . فتارة ينادى فرنسا وأخرى ابنه ، وكان يبدو كأنه يتحدث مع رفاقه وكبار قواده الذين عرفهم فى أوج عظمته ومجده ، وسمع وهو يقول « ستاينجل ... ديزى ... ماسينا ... النصر القريب .. فهيا اهجموا وشددوا الضغط على العدو ... » .

وعقب ذلك حاول القفز من فراشه ، فخانته قدماه وسقط على الأرض فاقد الوعى . ويظهر أن تهيج الإمبراطور نفخ فيه قوة فوق العادة فهجم على مونتولون فى هذيانه وألقاه على الأرض وشدد عليه

الخناق حتى كاد يزهقه لولا أن ارشمبولت كان فى الغرفة المجاورة فأسرع عند سماع الجلبة وساعد مونتولون على إرجاع المريض إلى فراشه . و بعد لحظة أشار إليهم بيده طالباً جرعة ماء فقدموا له اسفنجة مبللة لأنه لم يعد قادراً على البلع . هذا الذى دوّخ الأمصار ! !

وفى الساعة التاسعة صباحاً ، هبطت الحرارة ، وعاد إليه وعيه فنادى طبيبه وقال : « يجب أن تتذكر جيداً كل ما أوصيتك به ، فلا تهمل القيام بفحص معدتى بدقة بعد موتى ، لأنى أريد أن ينتفع ابنى بتجاربكم ، وأن تتعاون جميعاً على إنقاذه من الوقوع فى براثن هذا الداء اللعين . وأوصيك أن تحاول الاتصال به وترشده إلى ما يجب عليه عمله ، لكى يقى نفسه من هذا المرض . وهذا آخر مطلب أسألك القيام به » .

وعند الظهر عاد المرض إلى شدته ، ونظر الإمبراطور إلى طبيبه قائلا وهو فى رابطة جأش : « إن حالتى سيئة جداً وها هى النهاية تقترب » . ثم فقد وعيه ثانية واستغرق فى غيبوبة طويلة ، كان يفيق منها أحياناً ليوصى رفاقه ببعض أهل الجزيرة الذين يعطف عليهم بصفة خاصة ، والواقع أن نابليون كان معبود سكان الجزيرة جميعاً من أكبرهم إلى أصغرهم مقاماً وسناً ، وكان سيلهم لا ينقطع ، وهم يترددون على المنزل متلهفين على أخبار المريض العظيم . وكان هذا لا يملك نفسه من البكاء لرؤية مظاهر الإخلاص تبدو فى كل حركة من حركاتهم .

٣ مايو : انتعش الإمبراطور قليلا فى الساعة الثانية بعد الظهر، وأخذ يتحدث فى ضعف مع الذين حوله قائلا : « ها قد بدت الساعة ... ساعة موتى وساعة رجوعكم إلى فرنسا . لقد شاطرتمونى آلام النفى ، وآمل أن تخلصوا لذكراى كما أخلصتم لى فى حياتى . لقد اضطرتنى الظروف أن أؤجل كثيراً من ضروب الإصلاح التى كنت أنوى أن أغدقها على فرنسا والشعب الفرنسى ، ولكن فرنسا رغم ذلك لا تنقم على ، بل هى لا زالت تذكرنى بالعطف وتقدس اسمى وذكراى ، فكونوا مثلها مخلصين للمبادئ التى كافحنا سوياً من أجلها » .

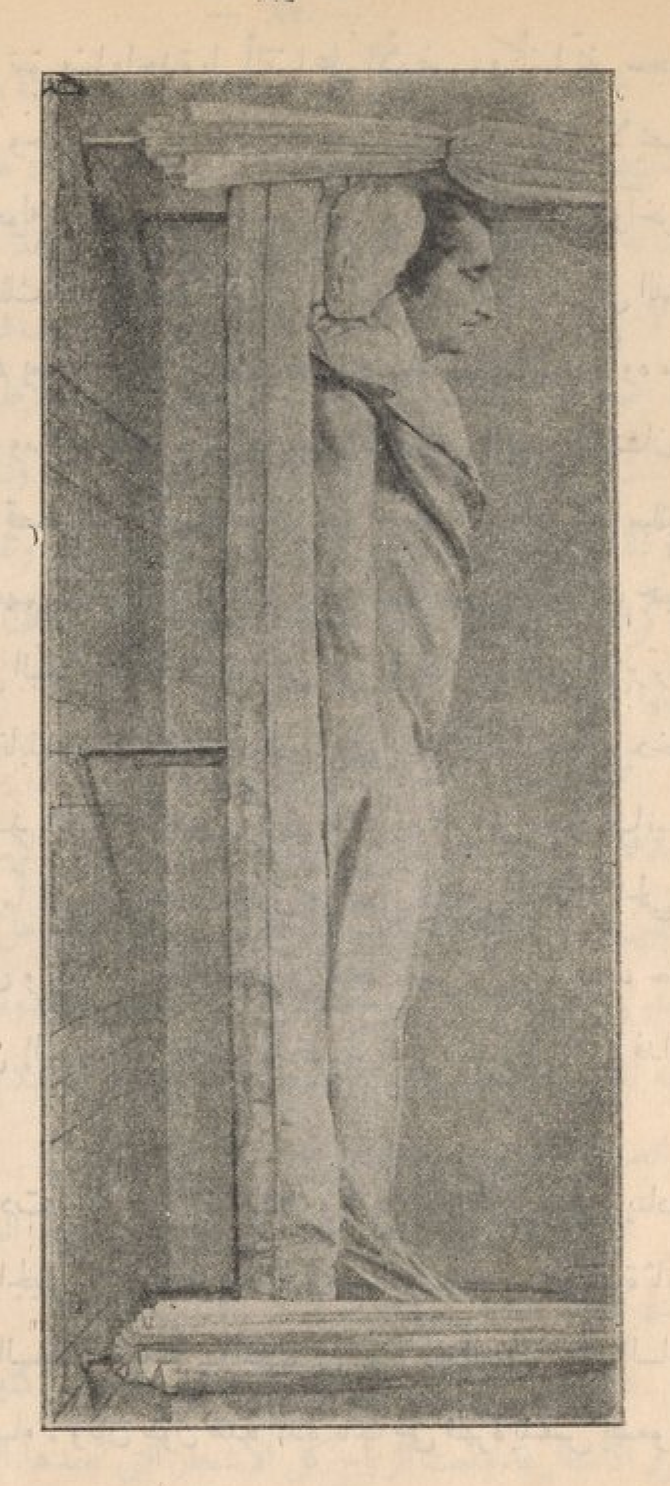
ثم ارسل فى طلب الأب فيحنالى ، وطلب أن يترك وإياه وحدهما . فخرج جميع من بالغرفة إلا الأب وتلقى الإمبراطور فى سكون ووحدة طقوسه الدينية الأخيرة وعقب انتهائها دخل الكونت مونتولن الغرفة ثانية ، فوجد علامات الاطمئنان والهدوء تبدو على وجه نابليون ، و بعد حديث قصير نام نوماً هادئاً . وعند ما استيقظ فى الصباح ، نادى خادمه وقال له :

« إفتح الشباك يا مارشان لكى أستنشق الهواء العليل الذى أرسله لنا الله » .

٥ مايو : كان ليل ٤ مايو مظلماً يقبض النفوس كثير الأعاصير غزير الأمطار فاختلعت الرياح كل الأشجار التى تعهدها الإمبراطور

بعنايته ، فلم تبق منها واحدة بل ألقتها على الأرض ، وكأنها تخر سجداً لرهبة الليل وحزن الموقف . وكان المريض العظيم فاقد الوعى لا يحس بما يجرى حوله ، يتقلب فى فراشه و يتنهد تنهداً عميقاً بين آن وآخر .
وفى أثناء ذلك سمح لأطفال القرية أن يمروا أمام هـذا الرجل الذى طالما حباهم بعطفه وكانوا لم يحظوا برؤيته منذ شهر فهالهم ما رأوه من تغير شكله وملامحه التى لم يعهدوا فيها إلا مظاهر الحب والحنـان ، و بعد تردد قصير هجموا نحو فراش المريض وأخذوا يقبلون يديه مبللين إياها بدموعهم البريئـة الغزيرة . وكان المنظر مؤثراً فلم يتمالك جميع الواقفين من البكاء كالأطفال ، وأغمى على واحد منهم وهو ابن برتران الذى سمى نابليون تيمناً بالإمبراطور . وفى أثناء هذه المناحة ، دخل الغرفة أحـد الخدم المخلصين وكان قد لازم الفراش مدة ثمانيـة وأر بعين يوماً ، وكان شاحب اللون مرتعش اليدين من تأثير الحمى ، وكان يهذى و يبكى ، وهو يتقدم فى ضعف نحو سرير سيده ، حتى إذا ما وصل إليـه جلس بجانبه وأخـذ يتمتم باستمرار : أنا فداؤه أنا فداؤه .

وازدادت الحالة سوءاً أثناء الليل وكان الإمبراطور يهذى و ينادى « فرنسا ، الجيش ، جوزفين ... » وسمع وهو يصيح عليها مرة ثانية فى الساعة السادسة صباحاً . واستمر فى غيبوبته العميقة حتى الساعة السادسة مساء . وكان طول هذه المدة نائماً على ظهره يتنفس بصعوبة



على فراش الموت

وقد تدلت يده اليمنى خارج فراشه . أما وجهه وعيناه ، فقد تجلى فيهما هدوء واطمئنان للمصير المحتوم . وعندما آذنت الشمس بالمغيب وأخذت فى الاختفاء وراء الأفق ، صعدت معها روح نابليون إلى خالقها وكانت



قالب لوجه نابليون بعد موته كما أخذه طبيبه انتومارکی

آخر كلمات قالها « جزيرة البا .. نابليون ... الجيش ، وجوزفين »

وكان نابليون قد أوصى أن يدفن على ضفاف السين ، فإذا لم يكن ذلك ممكناً ففى جزيرة أجاكسيو حيث دفن أجداده . فإذا رفضت الحكومة الإنجليزية هذا أيضاً فلتكن رقدته الأخيرة فى سانت هيلانه تحت شجرة معينة ، طالما استظل بظلها بجوار النهر الصغير الذى كثيراً ما روى عطشه بمياهه الباردة العذبة . فذهب أصدقاؤه بعد الوفاة مباشرة إلى حاكم الجزيرة ، وتضرعوا إليه أن يتوسط لدى حكومته للسماح بنقل الرفات إلى أرض الوطن . ولكنه صارحهم بأن لديه أوامر من حكومته تقضى بدفن (الجنرال بونابرت) فى جزيرة سانت هيلانه ، وأنه لا مانع عنده أن يدفن (الجنرال) فى أى بقعة من الجزيرة يفضلونها . كذلك رفض بتاتاً أن يسمح بحجز القلب والمعدة بعد إجراء الصفة التشريحية كما أوصى نابليون ، بل صمم أن تدفن جميع أجزاء جسم (الجنرال) فى أرض الجزيرة .

وبعد تشريح الجثة(*) أعد الجثمان للدفن ، فألبسها الخادم الخاص

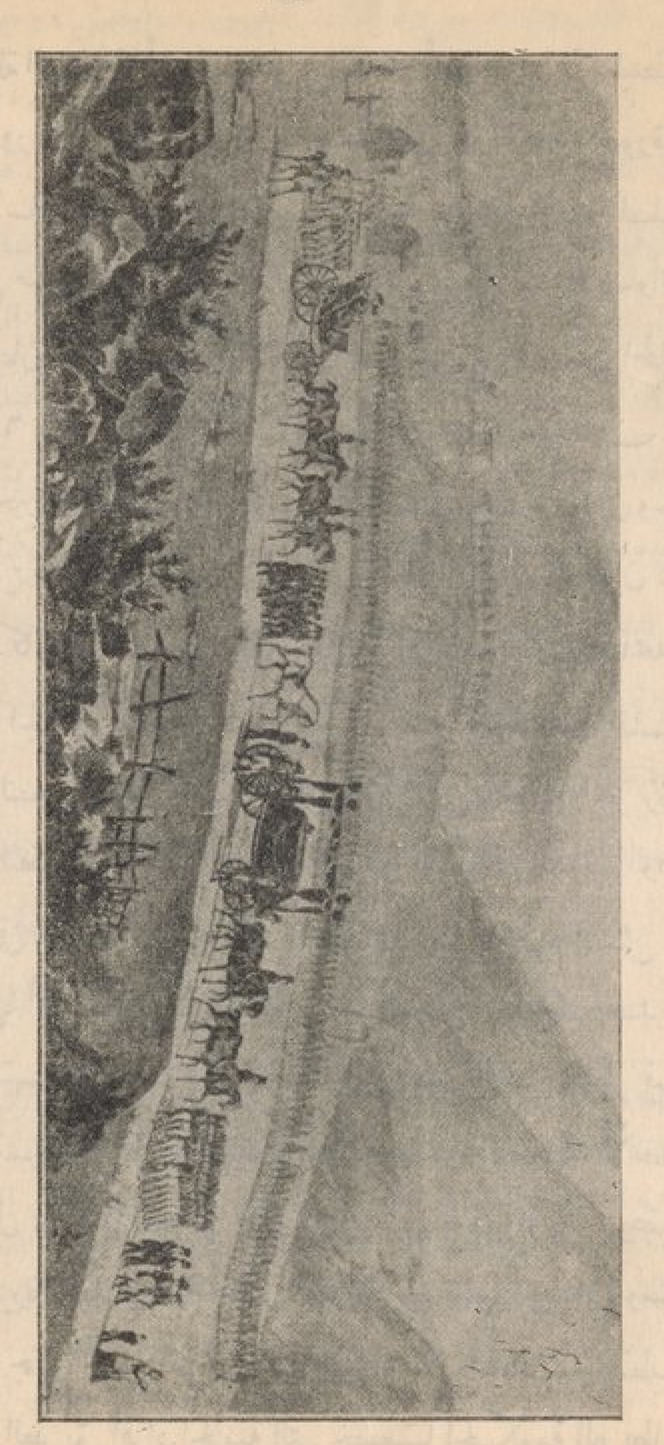
(*) ظهر من تشريح الجثة أن نابليون كان مصابا بالسل الرئوى وبقرحة سرطانية فى المعدة . أما التهاب الكبد الذى عولج لأجله فكان نتيجة مناخ الجزيرة الحار . وقد طغت هذه الفكرة على حقيقة مرضه فأكثر الأطباء من إعطائه المسهلات والمقيئات والمعرقات والحقن الشرجية والحمامات الملحية فضاعفوا من آلامه وجعلوا من جسمه حطاماً بالياً حتى إنه كان يصيح فى أطبائه مستغيثاً : « دعونى أموت من الداء فهذا خير لى من أن أموت من الدواء . خلوا أدويتكم جانبا فإنى لا أريد أن أصاب بعلتين : مرضي والمرض الذى تعطوننى أياه » .

للمتوفى الحلة التى اعتاد أن يلبسها فى حياته — أى الصديرية والبنطلون الأبيضان وربطة الرقبة السوداء والأحذية الطويلة والقبعة المشهورة — ونشر على ساقيه العباءة التى لبسها فى موقعة مارنجو ووضع الصليب الفضى على صدره ، بينما وقف الأب فيجنالى عند رأسه يتلو صلواته .

وسرعان ما انتشر خبر وفاته فى أنحاء الجزيرة ، فتدفقت الجماهير طوال يوم ٦ ، ٧ مايو على المنزل مارين أمام جثمانه مودعين إياه الوداع الأخير ، وقد حسروا رؤوسهم المنكسة فى خشوع وحزن وحتى حاكم الجزيرة (السير هادسون لو) لم يتمالك أن يقول فى حزن :

« لقد كان ألد أعداء بريطانيا وعدوى أنا أيضاً ، ولكنى أسامحه » .

وصحا الجو فى صباح الثامن من شهر مايو ، وسطعت الشمس واختفت السحب وهب نسيم منعش عليل على أنحاء الجزيرة ، وازدحمت الطرقات بأهالى الجزيرة ليودعوا أسيرهم المحبوب الوداع الأخير . وفى الساعة الثانية عشرة والنصف حمل الجنود النعش إلى عربة جرتها أربعة جياد . وكان يحيط بالنعش إثنا عشر جندياً ، وكانت مهمتهم حمل النعش فى الأمكنة التى يحول الوحل والمطر فيها دون متابعة سير العربة . وكان يتبع النعش مباشرة الأصدقاء الأخصاء وخدم المنزل ، وكانوا مطأطئي الرؤوس فى حزن وخشوع وألم ، وعقبهم حاكم الجزيرة وقائد الحامية وكبار الضباط على ظهور جيادهم ، ومشى فى المؤخرة جميع أهالى الجزيرة سيدات ورجالا وأطفالا ، واصطفت على جانبى الطريق أفراد الحامية التى خصصتها الحكومة البريطانية



موكب الجنازة في جزيرة سانت هيلانه

لحماية الجزيرة أثناء سجن الإمبراطور وكان عددهم يبلغ ألفين وخمسمائة جندى .

... وأخيراً وقف الموكب ، وحمل الجنود النعش على أكتافهم وساروا به فى طريق ضيق إلى البقعة التى أوصى الفقيد بأن يدفن فيها ، ووضع النعش على حافة المقبرة ، بينما أخذ الأب فيجنالى يتلو صلواته . . وعند إنزال النعش إلى القبر ، أخذت السفن الحربية الراسية فى الميناء تطلق مدافعها تكريماً للفقيد العظيم ، وكانت لم تنقطع عن ذلك طول مدة سير الجنازة من المنزل إلى المقبرة .

ووضع لوح من الحجر بسيط فى مظهره على المقبرة ، وقد كتبت عليها الكلمات الآتية :

نابليون : ولد فى أجاكسو ١٥ أغسطس ١٧٦٩

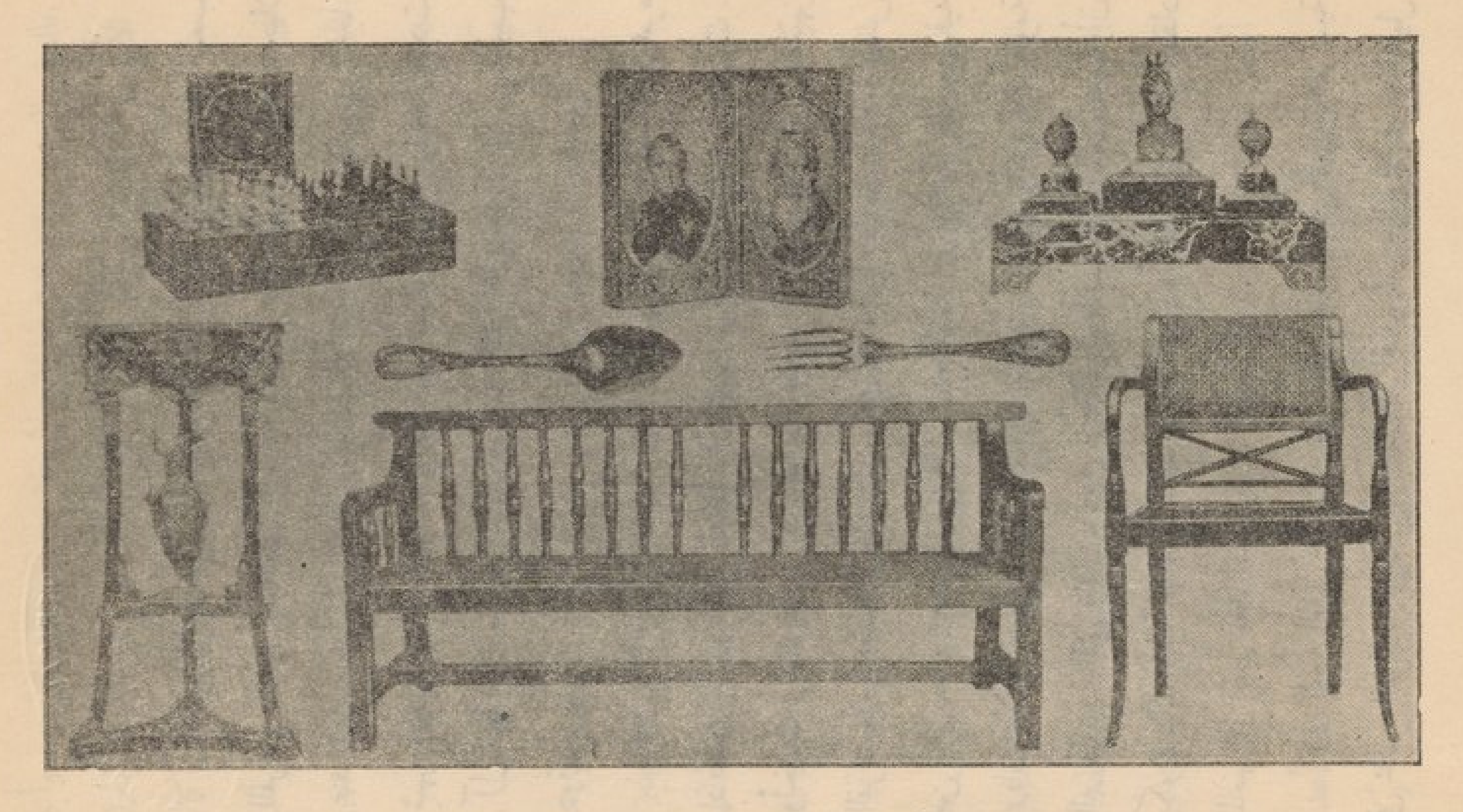
وتوفى بسنت هيلانه ٥ مايو ١٨٢١

وفى يوم ٢٧ مايو رحلت الحاشية التى رافقته فى المنفى إلى فرنسا ، وقبيل سفرهم ذهبوا إلى المقبرة وغطوها بالزهور والرياحين ، و بللوها بدموعهم التى لم يستطيعوا حبسها .

ولكن واحداً منهم — وهو السرجنت هوبارت — رفض بتاتاً أن يترك قبر سيده . فبقى بجانبه يزوره يومياً مدة تسعة عشر عاماً ، حتى استجاب العالم صوت فرنسا وسمح بنقل رفات الإمبراطور إلى ضفاف السين تحت قبة الأنفاليد وعندها رافق هذا الخادم المخلص رفات سيده حزين القلب مكسور الفؤاد ولكن راضى الضمير .



قبر ناپليون في سانت هيلانه



بعض الأدوات التى كان يستعملها نابليون فى الجزيرة

خاتمـــة المطاف

أوصى الإمبراطور بأن يدفن على ضفاف السين بين أبناء الشعب الفرنسى الذى أحبه من كل قلبه . وكان هـذا الأمل يبدو مستحيلا عند كتابته ، ولكن سرعان مامرت الأعوام وتغيرت الظروف فما جاء شهر يوليو من عام ١٨٣٠ حتى قامت فرنسا قومة رجل واحد وطردت آل البوربون من عرشها ووضعت التاج على مفرق لويس فيليب دوق أورلينز .

وفى ٢٩ يوليو ١٨٣٢ توفى ابن نابليون الوحيد وكان عمره إذ ذاك واحدا وعشرين عاماً فزال بموته كل أثر مباشر لذرية بونابرت . وأخذت فرنسا تتحرر تدريجياً من رقابة الحلفاء وسيطرتهم . فانتهز الفرنسيون فرصـة الاحتفال بذكرى وفاة بونابرت فى اليوم الخامس من مايو عام ١٨٤٠ وقدموا التماساً للحكومة البريطانية يطالبون فيه برفات الإمبراطور . وكان اللورد بالمرستون على رأس الحكومة البريطانيـة التى وافقت دون تردد فى خطاب ودّى تمنت فيـه أن يكون ذلك بداية عهد جـديد بين الأمتين وأملت أن تدفن أحقاد الماضى فى القبر المعدّ لتسلم رفات الإمبراطور .

وفى اليوم الثانى عشر من شهر مايو أعلن رئيس الوزارة الفرنسية فى مجلس النواب الفرنسى أن الملك قد أصدر أمره إلى الأمير جوانفيل

بالسفر إلى جزيرة سانت هيلانه لاستلام رفات الإمبراطور . وأبحر الأمير ومرافقوه على ظهر سفينتين حربيتين وصحبه فى الرحلة الجنرال جورجود والجنرال برتران والكونت لاس كاساس وهم الذين كانوا فى معية الإمبراطور وهو فى المنفى . وقد أخذوا معهم تابوتاً فاخراً من الأبنوس المتين وكان كبير الحجم لدرجة كافية ليحوى التابوت الذى دفن به الإمبراطور حتى لا تزعج رفاته بنقلها من تابوت إلى آخر . وكتبت على التابوت كلمة واحدة ، نابليون ، بحروف من الذهب .

ووصلت السفينتان إلى الجزيرة فى يوم ٨ اكتوبر وقوبلتا بترحيب كبير من مدفعية الساحل وكذلك من السفن الانجليزية الراسية فى الميناء . وكان يوم ١٥ اكتوبر يوافق الذكرى الخامسة والعشرين لنزول الإمبراطور إلى سجنه فى سانت هيلانه ، فحدد ذلك اليوم بالذات لفتح قبره واستخراج رفاته . وفى منتصف الليل تماماً اجتمع حول القبر جماعة من المهندسين الانجليز وشرعوا فى فتح القبر تحت إشراف حاكم الجزيرة وبحضور أعضاء البعثة الفرنسية . وبعد تسع ساعات من العمل الشاق المستمر أزيلت الأتربة والحجارة الصلبة من فوق اللحد ولما رفعت البلاطة الصلبة من فوق التابوت أقيمت الصلاة .

ورفع التابوت فى سكون وإجلال إلى خيمة قريبة أعدت من قبل . ولما فتحت التوابيت الثلاثة التى احتوت الرفات — وكان



عند ما فتح التابوت قبل نقل الرفات إلى فرنسا التي أحبها من كل قلبه

أولها من الخشب وثانيها من الرصاص وثالثها من القصدير — بدت الجثة وقد غطيت بطبقة من الحرير الأطلسى . ولما رفع هذا الغطاء كانت دهشة الموجودين عظيمة لأن تقاطيع وجه الإمبراطور لم تتغير رغم مرور السنوات الطوال حتى أن معرفته لم تتعذر على الذين رأوه فى حياته . وقد دل هذا على أن الاحتياطات التى اتخذت لحماية الجثة من الهواء والرطوبة والحرارة ، أفلحت إلى حد كبير . أما الملابس فقد أصابها بعض العطب . وبدا الإمبراطور وكأنه نائم نوماً هادئاً . ولم يستغرق الاستعراف على الجثة أكثر من دقيقتين أقفلت بعدها التوابيت الثلاثة ثانية ووضع الجميع فى التابوت الأبنوسى الفاخر الذى أحضرته البعثة معها .

وكانت السماء تمطر وترعد إبان هـذه العملية . وقصفت مدافع الساحل تكريماً لذكرى الإمبراطور ومشى جميع أهالى الجزيرة وراء النعش أثناء نقله من القبر إلى الميناء . وكان النعش موضوعاً على عربة تجرها أربعة خيول ويسير على كل من جانبيها ثمانية من ضباط حاميـة الجزيرة . وسار فى الموكب كل الموظفين الرسميين من مدنيـين وعسكريين . وطلب حاكم الجزيرة — وهو الذى خلف سير هدسون لو — رسميا من جميع رجال الجزيرة أن يرافقوا الجثـة فى رحلتها إلى الميناء . ورافقها أيضاً جميع جنود الحامية البريطانيـة المرابطة بالجزيرة ، ورفعت الأعلام السوداء على جميع منازل جيمس تون

ونكست الأعلام على الدور الرسمية والسفن الحربية .

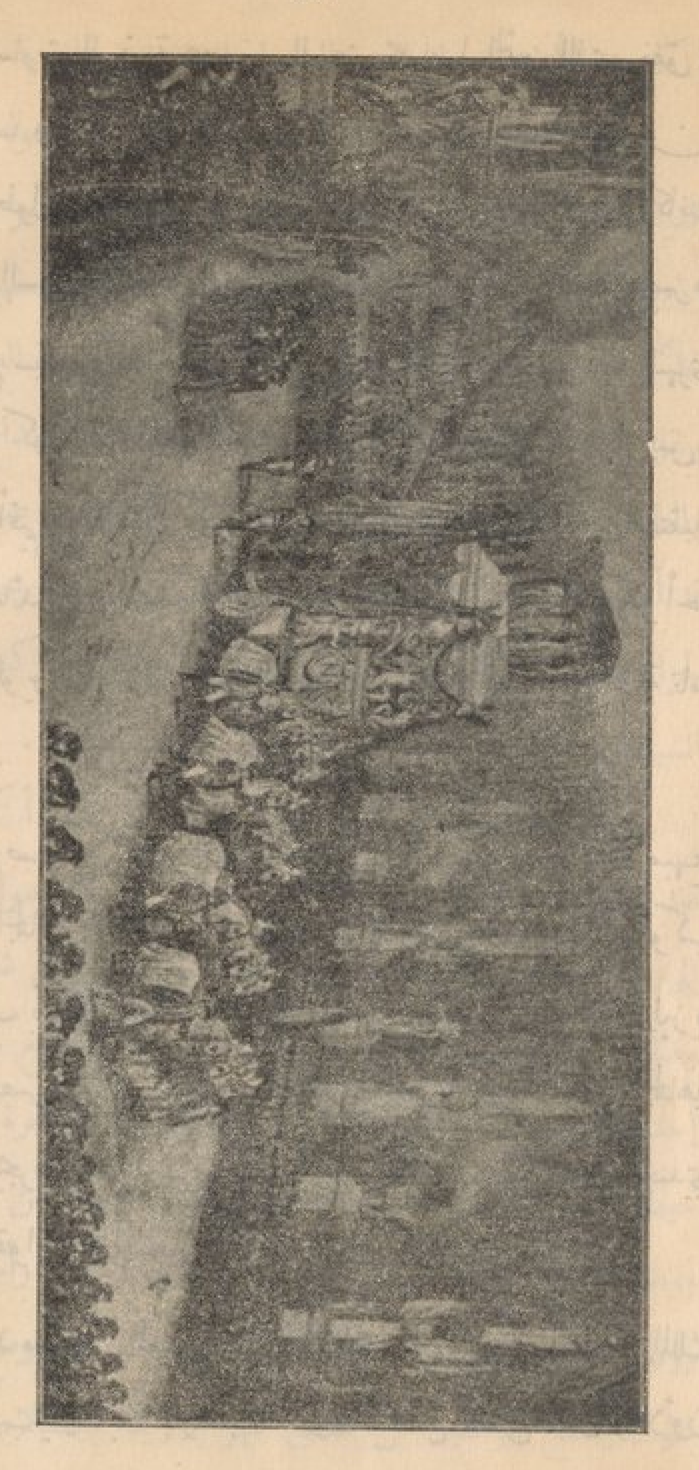
وعلى رصيف الميناء وقف الأمير جوانفيل ومن حوله الضباط الفرنسيون فى ملابسهم السوداء وعندما اقتربت العربة نكسوا رؤوسهم الحاسرة . ووقفت العربة على بعد خطوات منهم ، وتقدم حاكم الجزيرة وسلمهم جثة الإمبراطور باسم الحكومة البريطانية . ونقل التابوت فى زورق صغير إلى السفينة بينما كانت المدافع تقصف والعلم الفرنسى يرفرف فوقه . وهناك وضع فى كنيسة صغيرة كانت قد أعدت من قبل لهذا الغرض . وأضيئت الشموع حوله ووقف لحراسته ستون جنديا ورفرف على النعش علم نفيس اشتركت فى صنعه السيدات الانجليزيات اللاتى كن يقمن بسانت هيلانه .

وأبحرت السفينة فى اليوم الثامن عشر من شهر أكتوبر أى بعد مضى خمسة وعشرين عاماً وثلاثة أيام من تاريخ وصول بونابرت إلى الجزيرة ليمضى فيها بقية عمره . وفى اليوم الثانى من شهر ديسمبر وصلت السفينة ميناء شربورج وعندها أرسلت المدافع من أفواهها إحدى وعشرين طلقة . ثم نقل التابوت إلى ظهر الباخرة نورماندى حيث وضع على منصة عالية وأحيط بالشموع المضيئة من كل جانب ووضع التاج الإمبراطورى على وسادة فاخرة عند رأس التابوت ووقف الأمير جوانفيل عند الطرف الآخر . وكان وضع التابوت بحيث يسمح للواقفين على ضفتى النهر برؤيته بجلاء ووضوح .

وهكذا سارت السفينة عبر نهر السين بحملها الثمين الذى خفق له قلب فرنسا وحيّته الجماهير بحماس لا يوصف وقصفت المدافع من الجانبين طول الطريق ودقت الكنائس أجراسها الجنائزية . وكانت ضفتا نهر السين من الهافر إلى باريس مكتظتين بالجموع التى لا حصر لها ولم ينقطع سيل الهتافات طول الطريق ، حتى وصل الموكب النهرى إلى قرية كوربيفوا وهى تبعد مسافة أربعة أميال من باريس . وكان قد أقيم هناك تمثال كبير للامبراطورة جوزفين يمثلها وهى تستقبل زوجها العائد إلى وطنه فاتجهت كل القلوب إليها ، ولم يفكر أحد فى مارى لويز التى كانت لا تزال على قيد الحياة تعيش فى عزلة تامة فى بارما .

وفى صباح اليوم التالى سطعت الشمس فى إشراق مبهج فصاحت الجماهير المتراصة « هذه شمس أوسترليتز » وابتدأ الموكب سيره تحف به كل مظاهر العظمة والأبهة . وكان شارع الشانزليزيه وقوس النصر مزينين أبدع زينة وسارت العربة بين الأعلام والجماهير الحاشدة يجرها ستة عشر حصان أسود ويحيط بها الستمائة جندى الذين رافقوا الجثة أثناء رحلتها من سانت هيلانه .

وعند ما وصل الموكب إلى الانفاليد كان فى انتظاره الملك لويس فيليب يحيط به كبار ضباطه . وهناك حمل النعش اثنان وثلاثون

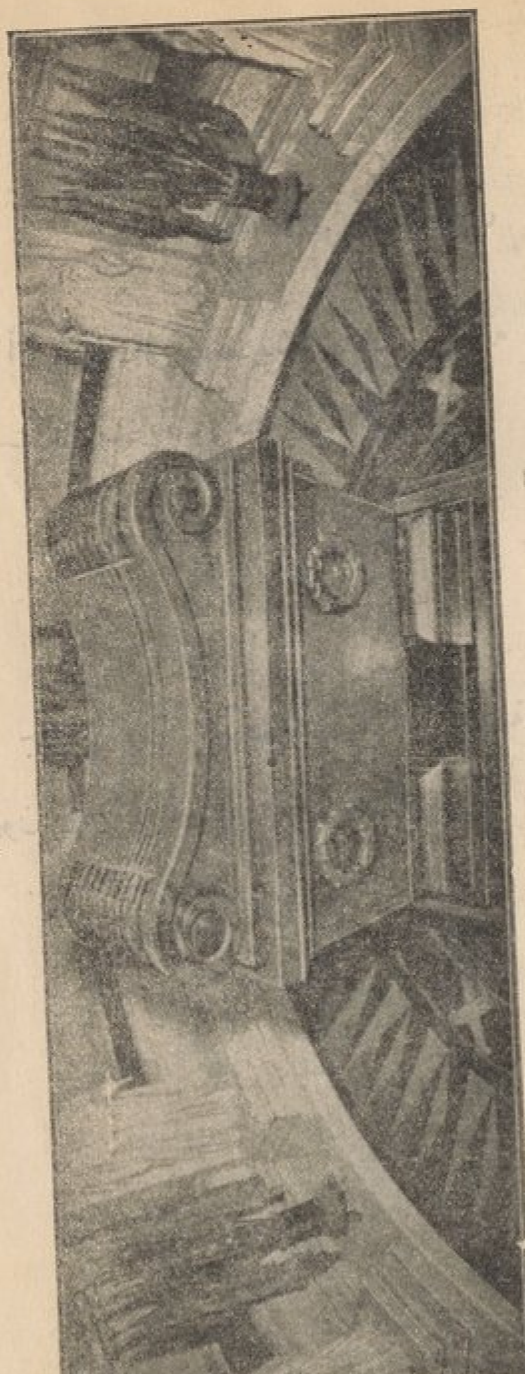


موكب الجنازة في شارع الشانزليزيه بباريس

من حرس نابليون القدماء وساروا به يتقدمهم الأمير جوانفيل الذى تقدم إلى الملك قائلا :

« مولاى . . إننى أقدم إليكم رفات الإمبراطور نابليون » .

فأجاب الملك: « وأنا أتسلمها منك باسم فرنسا » .



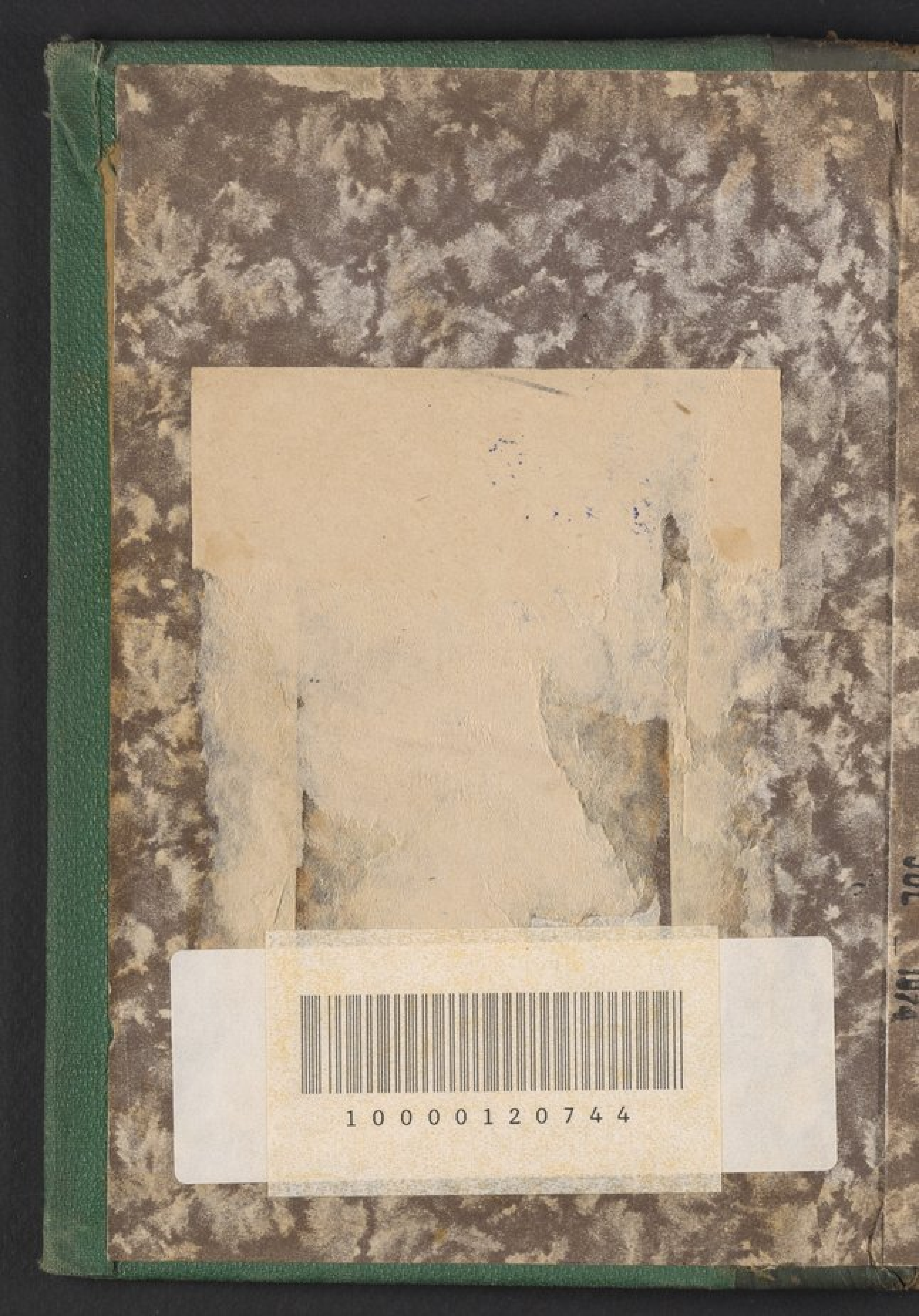
مقبرة العظماء تحت قبة الانفاليد

شكر واجب

أقدمه لمعالى حافظ باشا رمضان لأنه أعارنى المرجع الذى اقتبست منه معظم صور هذا الكتاب ؟

المؤلف

جميع المعلومات الموجودة بالكتاب مقتبسة من كتاب « حياة نابليون بونابرت » تأليف جوزيف أبوت .


1 0 0 0 0 1 2 0 7 4 4

